

كتاب

مرهم العلل المعضلة في الرد على أئمة المعتزلة

تأليف

عبد الله بن أسعد اليافعي

٦٩٨ - ٧٦٨هـ

تحقيق

محمود محمد محمود حسن نصار

دار الجيل

بيروت

كِتَابُ
مَرْهَمِ العِلَلِ المُعْضِلَةِ
في
الرَّدِّ عَلَى أَئِمَّةِ المُعْتَزِلَةِ

تأليف

عبد الله بن أسعد اليافعي

٦٩٨ - ٧٦٨هـ

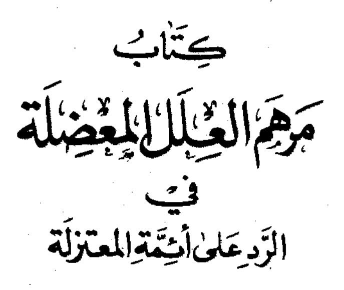
تحقيق

محمود محمد محمود حسن نصّار

دار الجيل

بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م


كتاب

مرهم العلل المعضلة

في

الرد على أئمة المعتزلة

مقدمة المحقق

اليافعي

٦٩٨ ــ ٧٦٨ هـ
١٢٩٨ ــ ١٣٦٧ م

١ ــ حياته

نسبه ــ أخلاقه ــ آثاره

٢ ــ المعتزلة

التعريف بهم ــ نشأتهم ــ طبقاتهم

نسبه ونبذة عنه

عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي، عفيف الدين : مؤرخ، باحث، متصوف، من فقهاء الشافعية. من أهل عدن، ونسبته إلى يافع من حِمْيَر. حج سنة ٧١٢ هـ، وعاد الى اليمن. ثم رجع إلى مكة (سنة ٧١٨ هـ) وجاور إلى أن توفي[١]

أخلاقه

* **قال الإمام ابن حجر** في الدرر الكامنة (٢/٣٥٣): كان كثير الإيثار للفقراء، كثير التواضع، مترفِّعاً على الأغنياء، مُعْرِضاً عمَّا بأيديهم، نحيفاً، ربعة، كثير الإحسان للطلبة إلى أن مات.

* **وقال ابن رافع**: اشتهر ذكره، وبَعُد صيته، وصنّف في التصوُّف وفي أصول الدين، وكان يتعصَّب للأشعريّ، وله كلام في ذمٍّ ابن تيميَّة. ولذلك غمزه بعض من يتعصّب لابن تيميَّة من الحنابلة وغيرهم. وممّن حطّ عليه الضياء الحمويّ لقوله في قصيدة له:

(١) البدر الطالع ١: ٣٧٨ وطبقات السبكي ٦: ١٠٣ وفيه: وفاته سنة ٧٦٧ ومثله في مفتاح السعادة ١: ٢١٧ والفوائد البهية ٣٣ والنجوم الزاهرة ١١: ٩٣ وهدية العارفين ١: ٤٦٥ ومعجم المطبوعات ١٩٥٢ وروضات الجنات ٤٥٧ والدرر الكامنة ٢: ٣٥٢ وشذرات الذهب ٦: ٢١٠ والأعلام ٤: ١٩٨.

ويا ليلـة فيهـا السعـادة والمنـى   لقد صغرت في جنبها ليلة القدر

ولكلمات أخرى، وتأوّل طائفة كلامه.

* **وقال الإمام ابن حجر:** وكان منقطع القرين في الزهد؛ أخبرني شيخي أبو الفضل العراقي أنه قال لهم في كلام ذكر فيه الخضر: إن لم تقولوا إنه حيّ، وإلا غضبت عليكم. وحُفظ عنه تعظيم ابن العربي والمبالغة في ذلك.

* **قال ابن العماد** في شذرات الذهب (٢١١/٦): كان في صغره تاركاً لما يشتغل به الأطفال من اللعب. فلما رأى والده آثار الفلاح عليه ظاهرة، بعث به إلى عدن فاشتغل بالعلم... وحببت إليه الخلوة والانقطاع والسياحة في الجبال.

* **وقال:** ذكره الأسنوي في طبقاته، وختم به كتابه، وذكر له ترجمة طويلة، وقال: كان إماماً يُسترشد بعلومه ويُقتدى، وعَلَماً يُستضاء بأنواره ويُهتدى، صنّف تصانيف كثيرة في أنواع العلوم، إلا أنَّ غالبها صغير الحجم معقود لمسائل مفردة، وكثير من تصانيفه نظم؛ فإنه كان يقول الشعر الحسن الكثير بغير كلفة.

* **وقال:** كان يصرف أوقاته في وجوه البر، وأغلبها في العلم، كثير الإيثار والصدقة مع الاحتياج، متواضعاً مع الفقراء، مترفعاً عن أبناء الدنيا، مُعْرِضاً عمَّا في أيديهم، وكان نحيفاً، ربعة من الرجال، مربِّياً للطلبة والمريدين ولهم به جمال وعزة.

شعره

الشعر موهبة يلقي الله بها في قلوب بعض عباده، فتنثال الألفاظ على ألسنتهم انثيالاً فترقّ المعاني، وتتوارد الأفكار، وتجتمع الكلمات، وتنسج على منوال الصنعة القريضية التي فيها قلَّة الألفاظ وكثرة المعاني، مع الإحاطة بلبِّ المناسبة التي تقال فيها القصيدة.

إن الشعر الذي تتوافر فيه عناصر الطبع والبعد عن التكلُّف والتصنُّع، يخلد ويخلِّد صاحبه. وها هو العلاَّمة اليافعي يذكر أشعاره عن اقتدار وطلاقة، فتبقى خالدة على مرِّ الأجيال. ومن نماذجها :

أَلا يَا رسُولَ اللهِ يا أَكْرَمَ الوَرَى ... ومَنْ جُودُهُ خَيْرَ النَّوالِ يُنِيلُ
ومَنْ كفُّهُ سَيْحُونُ منها ودِجْلَةٌ ... وجَيْحُونُ تجرِي والفُراتُ والنِّيلُ
مَدَحْتُكَ أَرْجُو منكَ ما أنتَ أَهْلُهُ ... وأَنْتَ الَّذي في المَكْرُمَاتِ أَصِيلُ
فيا خَيْرَ مَمْدُوحٍ أَثِبْ شَرَّ مادحٍ ... عَطَا مَانِحٍ مِنه الجزاءُ جَزِيلُ

وله من الشعر أيضاً:

قِفَا حَدِّثَانِي فالفُؤَادُ عَلِيلُ ... عَسَى مِنه يُشْفَى بالحدِيثِ غَلِيلُ
أحاديثُ نَجْدٍ عَلِّلانِي بذِكْرِهَا ... فقَلْبِي إلى نَجْدٍ أَرَاهُ يَمِيلُ
بتذكارِ سُعْدَى أَسْعِدَانِي فليسَ لي ... إلى الصَّبْرِ عنها والسُّلُوِ سَبيلُ
ولا تَذْكُرَا لي العامرِيَّةَ إنَّها ... يُوَلِّهُ عَقْلِي ذِكْرَهَا وُيزِيلُ
وَلٰكِنْ بذِكْرِي عرِّضَا عِنْدَهَا فإِنْ ... تَقُلْ كيف هو قولاً بذاكَ عَلِيلُ
فإن تَقْطِفِي يُشْفَى وإنْ تَتْلفي ففي ... هواكِ المُعَنَّى المستهامُ قَتِيلُ

ومنها:

ولمَّا تَوادَعْنَا النَّقَا وقد ... عَلاَنَا على بُعْدِ اللِّقَاءِ عَوِيلُ
بَدَا بَرَدٌ قد عَضَّ عُنَّابَ سُنْدُسٍ ... وفي الوَرْدِ دَرُّ البَحْرِ صَارَ يَسِيلُ

ومنها:

فإنْ لا أَمُتْ منها قتيلاً فإنَّني ... لِمَنْ حلَّ في وَادِي العَقِيقِ قَتِيلُ
إلى كَمْ على ليلَى وسُعْدَى وفي النَّقا ... ونَجْدٍ ونعمانٍ هوايَ أجيلُ
وليسَ دمي في بَطْنِ نعمانَ سائِلاً ... ولكِنْ لَهُ وادي العَقِيقِ مَسِيلُ
رَمَتْ مقلتي رِيمٌ لها بينَ رَامَةٍ ... وبَيْنَ المصَلَّى مَسْمَرٌ ومَقِيلُ
بِسَهْمٍ لهُ نَصْلٌ وفي النَّصْلِ جَمْرَةٌ ... وفي الجمرِ سُمٌّ ليسَ قطُّ يُقِيلُ
لها بَيْنَ سَلْعٍ والبَقِيعِ حِذَا قُبَا ... قبابٌ أحاطَتْ بالقباب نخيلُ

ومن حولها نورٌ يلوح ومنزلٌ يفوحُ على ذات الجمال دليلُ
وحولي لِلَوْمِي عاذِلاتٌ وسرُّنا فَشَا ومشى في الناس قالٌ وقيلُ
يقولون يَهْواهَا ويَهْذي بذِكْرِهَا فتىً يافعٌ أصلٌ لَهُ وقَبيلُ
قَلاَهُمْ وَوَالاهَا بِهَجْرٍ فَهَجْرُهُ سَبَاهُ جمالٌ عنده وجميلُ
وقالوا عزيزٌ كانَ بين قبيلةٍ حماة بأيديها الكميُّ صقيلُ
وَهَا هُو قد أَمسَى غريباً بِبَلْدَةٍ وليس بها حَامِدٌ له وحَمِيلُ
فقلتُ لهم حاشَا وكلاًّ فإنني لِغَوْثِ الوَرَى حامِي الذِّمارِ نَزيلُ
مَقَرُّ النَّدى، مُغْني العِدَا، عَلَمُ الهدى جلاءُ الصَّدى، مجْلي الرَّدَى ومُزِيلُ
محمدٌ المخصُوصُ بالحَوْضِ واللوى شفيعُ البَرَايا بالأَمانِ كفيلُ
غِياثٌ لملهوفٍ وغَيْثٌ لِنَاجعٍ وظِلٌّ لكلِّ العَالمينَ ظليلُ
سِرَاجُ ظلامةٍ للضَّلالةِ مُذْهِبٌ وبدرُ تمامٍ للهُوَاةِ دليلُ
نَفَى الشِّرْكَ، أَعْلَى الحقَّ، فالغيُّ والهُدَى
عزيزٌ به هٰذَا، وذاك ذليلُ

وله أيضاً من الشعر الجيِّد قوله:

أرى خلعةً صَفْرَا لهـا أنتَ دارعُ على جِسْمِكِ المُضْنَى لها الحبُّ خَالِعُ
يُعَنِّيكَ دَمْعٌ في الدَّيَاجي مواصِلٌ وطَعْمُ الكَرَى للعينِ منكَ مُقَاطِعُ
أَمَسْرَى النَّسيمِ الرَّطْبِ أغراكَ أَمْ أَتَى يزورُكَ طيفٌ والعيونُ هَوَاجِعُ
أَمِ اشتَقْتَ للغزلانِ بَيْنَ جُلاجِلٍ وبين النَّقَا بَيْنَ الخُزَامَى رواتِعُ
أَمِ اجتَزْتَ يوماً بالديار فلم تَجِدْ أنيساً فأبكتكَ الرسومُ البَلاقِعُ
أَمِ الحبُّ خانَ العهدَ أم فرَّقَ النَّوَى أَمِ الدهرُ فالدهرُ الخؤون مخادِعُ
أَمِ اشتَقْتَ ماءً بالعُذَيْبِ عَهِدْتَ أم شَجَتْكَ بروق بالغويرِ لوامِعُ
أَمِ النفسُ حنَّتْ نحو نَجْدٍ تَذَكَّرَتْ معاهِدَ أشجانٍ إليها تُنَازِعُ
أَمِ اسْتَذْكَرْتَ عَيْشاً بنَعْمانَ ناعماً فيا ليتَما أيامُ ذاك رَوَاجِعُ
أَمِ النَّشْرُ من وادِي العقيقِ شمَمْتَ أَمْ ضياءٌ بَدَا من نَحْوِ طِيبَةَ ساطعُ
أَمِ ارتَحْتَ إذ لاحَتْ قبابٌ حِذَا قُبَا فجئتَ إلى جيرانِ سَلْعٍ تُسارِعُ

أَم القبَّةُ الحسناءُ جمالُ بَهَائِهَا ... سَبَاكَ فَبَدْرُ الحُسْنِ من تلكَ طَالِعُ
أَم الرَّوْضَةُ الغرَّا هوَيْتَ فرارَهَا ... قَصَدْتَ وحَالَ دونَ تلك مَوَانعُ
أَضاءَتْ بهِ الظَّلْماءُ عندَ طلوعِهِ ... طِرَازُ جَمَالٍ للمحاسِنِ جامعُ
مَقَرُّ النَّدى غِنَى العِدَا عَلَمُ الهُدَى ... جلاءُ الصَّدَى من وجهِهِ النورُ لامع
محمدٌ المختارُ من آلِ هاشمٍ ... لَهُ نَسَبٌ في ذِرْوَةِ المجدِ يافِعُ
سُلالةُ عزٍّ من لُؤَيِّ بْنِ غالبٍ ... إلى أصلِهِ الفخرُ المؤثَّلُ راجعُ
بشَهْرِ ربيعٍ لاثنتي عَشْرةٍ خَلَتْ ... من الأوَّلِ البدرُ المتمَّمُ طَالِعُ
وآمِنَةٌ قَدْ أومِنَتْ ثِقْلَ حَمْلِهِ ... وسعدِيَّةٌ قد أسْعَدَتْها المراضِعُ
وحَوْلَهُ للباري سُجُودٌ وللعِدَا ... أسودٌ وَللأَعْطَا وُفُودٌ تَتَابَعُ
لاعدائِهِ سَيْفٌ وللصَّحْبِ جُنَّةٌ ... به يَتَّقِي من الحربِ مَنْ هُوَ شَاجِعُ
بهِ تَفْخَرُ العَلْيَاءُ والأَرضُ والسَّمَا ... وكلُّ الوَرَى مع ذَا هُوَ المتواضِعُ
جليسُ اليَتَامَى والمساكينِ رافِعٌ ... لَهُمْ ولأبناءِ الترفُّعِ واضِعُ
لِعَاصٍ ومِطْوَاعٍ عَبُوسٍ وضَاحِكٍ ... لِصَحْبٍ وَأَعْدَا مُضِرٌّ وَنَافِعُ

وله أيضاً في محمدٍ عليه الصلاة والسلام:

نبيٌّ عَلاَ فوقَ السماواتِ مَنْصباً ... بَدَا نورُهُ مِنْ قبلِ نَشْأَةِ آدَمِ
بِهِ الدهرُ أَضْحى ضاحكاً متبسِّماً ... عبوساً على أعدائِهِ غيرَ باسِمِ
مَليحٌ فَصِيحٌ أبيضٌ أَدْعَجٌ إِذَا ... تبسَّمَ خِلْتَ البرقَ بين المباسِمِ
إلى شَحْمَةِ الأُذنَيْنِ تكسُوهُ وَفْرَةٌ ... حَكَتْ جَنْحَ لَيْلٍ مُظْلِمِ اللَّوْنِ فاحِمِ
أَسَامِيهِ منها أحمدٌ ومحمَّدٌ ... وكُنْيَتُهُ مَوْصُولَةٌ باسْمِ قَاسِمِ
شفيعُ البَرَايَا صاحِبُ الحوضِ واللِّوَى ... غياثٌ ويَلْوِي بالدَّوَاهي الدَّواهِمِ

ومنها، قوله في المصطفى ﷺ:

كَفَى شَرَفاً أنّ الحبيبَ مُثَبَّتٌ ... لِمُذْهَلِ عَقْلٍ لِلْكَلِيمِ وَكَالِمِ
بطَرْفِ أَديبٍ لم يَزْغْ لا ولا طَغَا ... وقلبِ لبيبٍ ساكنٍ غيرِ هَائمِ
رأى وَوَعَى ما لم يَرَ غيرُهُ ولا ... وَعَى في السَّمَا من آيةٍ ومعالِمِ
علا فَوْقَ كلِّ المصطَفينَ مقرَّباً ... بأَعْلَى مقامٍ ما لَهُ مِنْ مُزَاحِمِ

وعادَ قريرَ العينِ في خِلَعِ الرِّضَا   وَغَانِمٍ ما لم يَغْتَنِمْ كـلُّ غانِـمِ
بيُمْنَاهُ سَيْفُ الحقِّ والرَّأسُ مُكْرَمٌ   بتاجِ العُلا والظَّهرُ يزهُو بخاتِـمِ

شيوخه

١ ــ أبو عبدالله محمد بن أحمد الدهيني المعروف بالبصَّال.
٢ ــ شرف الدين أحمد بن علي الحرازي قاضي عدن ومفتيها.
٣ ــ نجم الدين الطبري قرأ عليه الحاوي.
٤ ــ سمع الحديث من الرضي الطبري.
٥ ــ الشيخ علي الطواشي وهو الذي سلَّكهُ الطريق.

ثناء العلماء عليه

جاء في الدرر الكامنة (٣٥٣/٣) : أثنى عليه الأسنوي في الطبقات، وقال : كان كثير التصانيف.

قال ابن رافع : اشتهر ذكره، وبَعُد صيته، وصنّف كتباً منها: « مرهم العلل المعضلة في أصول الدين والارشاد » ــ وهو كتابنا هذا ــ و« الارشاد والتطريز في التصوّف »، وكتاب « نشر المحاسن »، وكتاب « نشر الروض العطر في حياة سيدنا أبي العباس الخضر »... وغيرها...

وفاته

لا شك أن الأعلام باقون في الدنيا مخلَّدون عليها، وهذه آثارهم من المصنَّفات العلمية والدراسات الأدبية الغزيرة المنبع العميقة المبنى والمعنى. أضِفْ إلى ذلك أبناءهم من الطلاب الذين خلَّدوهم ونشروا عملهم وممن تتلمذ على كتبهم.

[**يقول العماد في شذرات الذهب**] **(٦/٢١١)** بعدما ذكر تلامذته وأثره فيهم :

... فنعق بهم غراب التفريق وشتَّت شمل سالكي الطريق، سكرت طباعه، وبدت أوجاعه، فشكا من رأسه ألماً وجسمه سقماً، وأقام أياماً قلائل وتوفي وهو إذ ذاك فضيل مكة وفاضلها، وعالم الأبطحِ وعاملها، يرتفع ببركة دعائه عنها الويل، وينصب الوبل، وتفتح أبواب السماء فيخصّ منها العالي، ويسيل السافل.

[**قال صاحب العقد الثمين (٥/١١٠)** ط مؤسسة الرسالة] :

ذكر أنه توفي ليلة الأحد المسفر صباحها عن العشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وستين وسبعمائة بمكة، ودفن بالمعلاة جوار الفضيل ابن عياض وبيعت حوائجه الحقيرة ــ استغفر الله ــ بأغلى الأثمان، بيع له مئزر عتيق بثلاثمائة درهم، وطاقية بمائة وقِسْ على ذلك. انتهى

منهج المؤلف وسماتُ كتابه

أولاً : ذكر أن الداعي إلى تأليف هذا الكتاب سؤال وُجِّه إليه، وذكره مع ما فيه من أخطاء لغوية ونحوية.

ثانياً : ذبَّ الإمام اليافعي عن منهج أهل السنَّة، وبالأخص الإمام أبي حامد الغزالي في قصيدة طويلة أسماها : « عقد اللآلي المفصل بالياقوت الغالي في مدح عقيدة أهل الحق ومذهبهم العالي، والتغزل بالإمام أبي حامد الغزالي، وغيره من أئمتنا أُولي المناقب والمعالي ».

ثالثاً : أخذ المؤلف يردّ على المعتزلة ردًّا منهجيًّا في الحديث عن القدرة وصفات الله تعالى... الخ.

رابعاً : سعة ثقافة المؤلف وعلمه تبرز في إمساكه بزمام القلم حتى لا يخرج عن نطاق موضوعه. هذا ما تلحظه في قوله : « ولعمري إن بَسْط الكلام فيها ــ أي قول أبي حامد الغزالي : ليس في الإمكان أبدع مما كان ــ يستدعي تصنيف كتاب كامل؛ وفيما ذكرنا من ذلك كفاية عن التوغُّل في ميدان بعيد الغاية. ولنَعُدْ على الفور إلى ما كنا بصدده من ذكر الدور » كما نلحظه في قوله في مكان آخر : « والكلام في هذا وأشباهه يطول ويخرجنا مما نحن بصدده قاصدون ».

خامساً : كان الإمام اليافعي يحدد منهجه العلمي في كتابه هذا بحيث

يكون متماسك البنيان تماسُكَ الكفِّ للأنامل، وبحيث تدور الأفكار في إطارها المحدد لها دوران الكواكب في أفلاكها. فمثلاً يقول عندما يتحدث على إجماع الأمة بأن أفعال العباد واقعة بقدرة الله تعالى وارادته :

« ... فأما النقل فنصوص الكتاب والسنَّة ناطقة على إجماع الأمة قبل ظهور البدعة أن أفعال العباد واقعة بقدرة الله تعالى وارادته والاستشهاد من ذلك بالقليل يخرجنا الى حيِّز التطويل. فليقتصر من ذلك على ما يحصل به الكفاية في الإرشاد الى الإيمان به، والله وليُّ الهداية » وكما هو واضح في قوله : « واستدل على صحة مذهب أهل الحق وبطلان مذهب المعتزلة ومَنْ وافقهم على نفي القدر بما لا يحتمل إرادة هذا المختصر ».

سادساً : سرعة الارتداد إلى فلك موضوعه لا سيما بعد الإطالة والإسهاب في القضية التي يناقشها.

نلحظ ذلك في قوله (ص ٥٤): « وقد بعدنا في الخروج عن المقصود، وما نحن إلى ما كنا بصدده من الاستدلال نعود ».

سابعاً : كان الإمام اليافعي شاعراً عظيماً؛ فكثيراً ما يستشهد على ما يذهب إليه بقريضه. فيقول مثلاً (ص ٧٠): « أشرتُ بقولي في بعض القصائد ــ في توحيد الرب الماجد ــ متنقلاً من ذكر الغزل الى وصف الله عز وجل :

خليلي ما نعمى ونعمانَ والحمى وليلى وما ذكري لِلُبْنَى ولبنان
دعاها فمقصودي سواها إنما أكني بها عن عالي الوصف والشان...

إلى آخر هذه القصيدة التي نلحظ فيها استخدامه اللغة الإشارية الرمزية عند الصوفية. وأرى أنه يكفينا في التعبير عن حبنا لله عز وجل بما ذكره في كتابه الجليل، وما ذكره رسولنا العظيم. فإن بعض الصوفية لهم من الغزل الشطط ما لا يليق بجلال الرب عز وجل.

ثامناً : كان كثيراً ما يمهد لموضوعاته ولشروحه ولردوده... فيقول

مثلاً (ص ٦٩) عند ذكر الأدلة العقلية على عدم نسب القبح الى الله : « فها أنا أقدم طرفاً منه كالتَّوطئة والتمهيد، ثم أذكر بعد النقل منه طرفاً ردًّا له وردفاً ». وقوله (ص ٧١): « وسيأتي ذكر مباحث عقلية أيضاً بعد الأدلة النقلية إن شاء الله تعالى، أعني ما وعدت به أن يكون ردفاً، والوعد ينبغي فيه الوفاء ».

تاسعاً : إن المناظرة في أقوال السائل ومعرفة مراده يجعل العالِمَ المسئول يدقق في أقوال السائل. وهذا الشيخ السائل للإمام اليافعي كان يخطئ في النحو واللغة. فمثلاً عندما ينقل الإمام اليافعي عبارة السائل (ص ٣٠) ينبِّه إلى ما فيها من خطأ نحوي عند قوله: « انما يصح الاستدلال بكلام الله تعالى مهما كان عدل حكيم لا يفعل القبيح ولا يريده » فهو قد نقل بأمانة كلام السائل، وعقب عليه قوله : « قلت : هكذا لفظ السائل بالرفع؛ وصوابه بالنصب؛ عدلاً حكيماً » وهو ما يفرضه موقع الكلمة من الاعراب.

وأما الخطأ اللغوي فنجد مثلاً عنه في قول اليافعي عندما نقل كلام السائل (ص ٦٠): « وذكر السائل أنه ضجَّع به في الرد على المعتزلة ».

وعلّق عليه قائلاً : « هكذا قال بتشديد الجيم بعد الضاد المعجمة ».

أقول : قال ابن منظور في لسان العرب مادة « ضجع » : يروى : فاطَّجع بتشديد الطاء على إبدال الضاد طاء ثم إدماغها في الطاء. ويروى أيضاً : فاضّجع، بتشديد الضاد، أدغم الضاد في التاء فجعلها ضاداً شديدة على لغة مَنْ قال : « مصَّبر » في « مصطبرٌ ». وقيل : لا يقال : اطَّجع لأنهم لا يدغمون الضاد في الطاء.

ويبدو لي، والله أعلم، أن السائل ربما زلَّ قلمه فحرَّك التشديد عن موقعه سرعة في الكتابة لا عن قصد بناءً على ما ذكره ابن منظور

من رواية اضَّجع بتشديد الضاد، أو أنه أخطأ والخطأ واقع عند البشر إما عن جهلٍ أو عن غفلة، والله أعلم.

عاشراً : كيف يسوغ لمسلمٍ، أيًّا كان، أن ينفي ما أثبته الشرع، أو يقلل من قيمته، أو يراوغ بالألفاظ ليحيد عن الحق ؟ فالإمام اليافعي يذكر ثلاثين حديثاً منها سبعة عشر في الصحيحين كأدلة نقلية من السنَّة تبيِّن أن أفعال العباد واقعة بقدرة الله تعالى وارادته.

ويعقب اليافعي على الأحاديث الثلاثين قائلاً (ص ٩٦): « أيترك الأخذ بها والإيمان بمقتضاها، ويقتصر على محض حكم ونرمي بحكم الشرع وسنَّة الرسول والله سبحانه وتعالى يقول في حكم كتابه الذي على سائر الكتب يزهو : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾[(١)] فأي دين يبقى لنا إذا رمينا سنه نبيِّنا ونبذناها وراء ظهورنا، وديننا إنما هو مُتَلَقٍّ منها إذ مرجوع بيان أحكام الكتاب إليها. قال الله العظيم لنبيه الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم** ﴾[(٢)].

« هذا وآيات الكتاب المقدمات وغيرها موافقات للأحاديث المذكورات في إثبات القدر، كما مرّ، وكذا إجماع سلف الأمة أهل الإتباع قبل ظهور الابتداع، وكذا النظر الصحيح من العقل لا يحيل ما ورد في ذلك من النقل ومن الإجماع المذكور اتفاق السلف، فأظنه على قول ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن ».

ذكرت هذه الفقرة الطويلة لأبيِّن أن شيخنا الإمام اليافعي، رحمة الله عليه، كان يردّ على المعتزلة من منطلق كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع سلف الأمة.

---

(١) سورة الحشر الآية ٧.

(٢) سورة النحل الآية ٢٤.

كل ذلك يؤكد أن منهج أهل السنة هو المنهج القويم، والذي يسير على طريق رسول الله ﷺ وإنّا على آثارهم مقتدون.

حادي عشر : على الرغم من أن كتب العقائد تمتلئ بالأساليب الجدلية الفلسفية التي تحتاج الى الدليل وبرهانه وكيفية مقارعة الخصم بالحجج والتباري بالألفاظ التي تحمل المعاني الكافية على الانتصار للمجادل، فإن الإمام اليافعي في أسلوبه الرائق وتعبيره المقنع، يستخدم السجع كأسلوب من أساليب الإقناع وإفهام النظير فيما يريده ويقصد إليه. وذلك كمثل قوله : « ومما يدل أيضاً على أن العقل سبب النجاة من المحذور، أن لا ينكر في عواقب الأمور، ويخاف من تقلُّب الدهور، إلا عاقل حذور، بالهموم مغمور ».

وقد رأينا أنه، من المفيد، لما كان الكتاب يدور في جله على الردّ على المعتزلة، رأينا أن ننهي هذه المقدمة التعريفية بكلمة نعرِّف بها عن المعتزلة في نشأتهم وطبقاتهم.

التعريف بالمعتزلة، نشأتهم طبقاتهم

التعريف بهم

« هم قوم من القدرية زعموا أنهم اعتزلوا فئتي الضلالة عندهم. يعنون أهل السُّنَّة والجماعة، والخوارج الذين يستعرضون الناس قتلاً »[1].

وهم ليسوا أول فرقة كلامية ظهرت في الفكر الإسلامي — وإن بعدوا عن روافده العذبة — بل سبقهم من حيث النشأة الجهمية والقدرية.

ولعل السر في ظهور هذه الفرقة على غيرها من الفرق الأخرى هو أنها عرضت موضوعات علم الكلام في نسق مذهبي متكامل.

نشأة المعتزلة

تناولت كتب الفِرَق القصة الآتية باعتبارها نقطة البدء في نشأة هذه الفرقة، وهي :

أن رجلاً[2] دخل على الحسن البصري وقال : يا إمام الدين، لقد

(١) لسان العرب، ابن منظور، مادة « عزل »: ٢٩٣/٤.

(٢) هو واصل بن عطاء.

ظهر جماعة في زماننا يكفّرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفرٌ يخرج به عن الملة وهم وعيدية الخوارج؛ وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم لا تضرّ مع الإيمان، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان، ولا يضرّ مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة وهم مرجئة الأمة، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً ؟

فتفكر الحسن في ذلك، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء : أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً؛ ولا كافر مطلقاً، بل هو في منزلة بين المنزلتين : لا مؤمن ولا كافر.

ثم قام واصل واعتزل الى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن. فقال الحسن : اعتزل عنا واصل. فسمّي هو وأصحابه : « المعتزلة ».

طبقات المعتزلة

لا يختلف اثنان من المسلمين على أن دين الله اكتمل وتمَّ عند التحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى.

إذن، لا مستحدث في العقيدة من بعده إلا يعدّ بدعة وضلالة، وكل ضلالة في النار. ومن هنا فما من فرقة من الفرق الكلامية الإسلامية إلا حاولت أن توصل رجالها نسباً، أو طبقات رجالها، الى النبي ﷺ. وكان الهدف من ذلك هو بيان أن آراءهم ومبادئهم ليست بدعاً، وإنما لها جذور ضاربة في السلف الصالح الى التابعين ثم الصحابة، وبالتالي فان مبادئها هي نفسها ما كان عليه صاحب الرسالة ﷺ هو وأصحابه.

الطبقة الأولى : علي، وأبو بكر، وعمر، وابن عباس، وابن مسعود، وابن عمر، وأبو الدرداء.

الطبقة الثانية : الحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب، ومحمد ابن علي بن أبي طالب « ابن الحنفية » ومن التابعين سعيد بن المسيّب، وطاووس اليماني، وأبو الأسود الدؤلي.

الطبقة الثالثة : أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية وأخوه الحسن بن محمد، ومن أحفاد علي كذلك : الحسن بن الحسن، ومن أحفاد علي كذلك : الحسن بن الحسن وابنه عبد الله وابنه محمد النفس الزكية، وزيد بن علي بن زين العابدين بن الحسين، ثم محمد ابن سيرين، وأخيراً الحسن البصري.

الطبقة الرابعة : وبها يبدأ مذهب المعتزلة بالمفهوم الكلامي وأهم رجالها :

غيلان الدمشقي، واصل بن عطاء الله، عمرو بن عبيد، مكحول ابن عبدالله، وبشير الرحال.

الطبقة الخامسة : وهم أصحاب واصل الذين بعث بهم الى البلدان لنشر مذهب الاعتزال وهم :

أبو عمر، وعثمان بن خالد الطويل، وقد رحل إلى أرمينية، وعنه أخذ أبو الهذيل العلاف المؤسس الثاني لمذهب المعتزلة بعد واصل.

حفص بن سالم، وقد خرج إلى خراسان لمناظرة الجهم بن صفوان الذي كان يشيع مذهب الجبر.

القاسم بن السعدي وقد ذهب الى اليمن.

وأيوب بن الأوتن وقد أرسله واصل إلى المدينة والجزيرة والبحرين.

والحسن بن زكوان. ومن تلاميذ عمرو بن عبيد شبيب بن شيبة، وخالد بن صفوان وحفص بن العوام، وعمرو بن الحسين ابنا حفص ابن سالم.

الطبقة السادسة : وتشمل أعظم رجال المعتزلة وأعمقهم أثراً في تشكيل المذهب وتحديد آرائه سواء في جليل الكلام أو دقيقه، وعلى

رأسهم أبو الهذيل محمد بن الهذيل العبدي الشهير بالعلاف وتلميذه ابراهيم بن سيَّار النظّام، وبشر بن المعتمر مؤسس مدرسة بغداد المعتزلية، ومعمر بن عبد السُّلمي، وموسى الاسواري، وهشام بن عمرو القوطي، وأبو بكر بن كيسان الأصم.

الطبقة السابعة : وعلى رأسها : أبو معن ثمامة بن الأشرس، وأبو عثمان بن بحر الجاحظ، وأبو موسى المردار ــ الشهير براهب المعتزلة ــ وأحمد بن أبي داؤد، ويوسف بن عبد الله الشحام، وعلي الاسواري وعباد بن سليمان، وأبو جعفر الإسكافي، وابو الحسين الصالحي، ثم الجعفران : جعفر بن بشر، وجعفر بن حرب.

الطبقة الثامنة : وعلى رأسها أبو علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي « تلميذ الشحام »، أبو مجالد أحمد بن الحسين البغدادي، أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط « مؤلف كتاب الانتصار »، أبو القاسم عبد الله بن أحمد البلخي الكعبي، وأبو العباس الناشئ.

الطبقة التاسعة : أبو هاشم عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب. الجبائي، أبو عمر سعيد ابن محمد الباهلي.

الطبقة العاشرة : وهم تلاميذ أبي هاشم الجبائي، وأشهرهم أبو علي ابن خلاد، وأبو عبدالله الحسين بن علي البصري، وأبو اسحاق بن عباس، وأخت أبي هاشم وابنه أحمد.

الطبقة الحادية عشرة: وعلى رأسها قاضي القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد الهمذاني وقد تتلمذ على أبي هاشم الجبائي ثم رجال من أئمة الشيعة الزيدية ومفكريهم أمثال أبي عبد الله الداعي محمد ابن الحسن بن القاسم بن الحسن بن عبد الرحمن بن القاسم بن الحسن ابن علي بن أبي طالب، أبي العباس الحسن، الإمام المؤيد بالله وأخيه الإمام أبي طالب، يحيى بن محمد العلوي.

الطبقة الثانية عشرة : أبو رشيد النيسابوري، الشريف المرتضى أبو القاسم علي بن الحسين العلوي[1]

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذه الطبقات، انظر كتاب « فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة » للقاضي عبد الجبار، والحكم الجشيمي، وأبي القاسم البلخي. ص ٢١٤ وما بعدها. طبعة دار التونسية للنشر عام ١٣٩٣ هـ ــ ١٩٧٤ م.



كِتَابُ
مَرْهَمُ العِلَلِ المُعْضِلَةِ
فِي
الرَّدِّ عَلَى أَئِمَّةِ المُعْتَزِلَةِ



بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر واعن يا كريم

الحمد لله رب العالمين وافضل الصلوة والتسليم على رسوله سيدنا محمد النبي الكريم وعلى اله واصحابه اجمعين وبعد فهذا سؤال ارسل به الي بعض فقهاء الزيدية مشتمل على بعض المسائل الخلافية مما يتعلق باصول الدين وشيء من شبه المعتزلة المبتدعين وهذا لفظه ما يرى الشيخ فخر الاسلام وسيط عقد النظام وصدر المجالس ونور الحنادس في نفي الثاني عن الله تعالى بظاهر النص في قوله تعالى فاعلم انه لا اله الا الله ولما يعلم من دين الانبياء صلوات الله عليهم ضرورة هل هو مترتب على معرفة الله تعالى او معرفة الله مترتبة عليه فان قلت نفي الثاني مترتب على معرفة الله تعالى فما الطريق اليها على مذهبك. فان قلت الطريق اليها السمع كما تذهبون اليه فهي مشوشة عليك من وجوه احدها ان السمع مفتقر الى معرفة الله تعالى ومعرفة الله تعالى مفتقرة الى السمع وهذا دور محض لانا لا نعرف السمع حتى نعرف الله تعالى ولا نعرف الله تعالى حتى نعرف السمع فلا يحصلان ولا واحد منهما فبايهما نعترف ومن ايهما نعتذر لعمر الله انها مسئلة مجمجمة الذرق محمحمة الشوق تعتورها العقول وتتناحر فيها الفحول فاجب بفتق صميمها وتشر اديمها الثاني انما يصح الاستدلال بكلام الله تعالى مهما كان عدل حكيم لا يفعل القبيح ولا يريده (قلت هكذا لفظ السائل بالرفع وصوابه بالنصب عدلا حكيما) فاما مع تجويزكم القبيح عليه وارادته بكل الكائنات من وجوه الفساد من كفر وظلم وسواه . فما الثقة بكلامه ومن هاهنا انسد عليكم بالنبوات من حيث جوز شيخكم ابو الحسن الاشعري على الله تعالى اظهار المعجز على الكذابين وما اعتذر به شيخكم ابن الخطيب الرازي من

[قاتلو هم يعذبهم الله بايديكم] فهو المعذب الموجد للعذاب - كما اجري على ايدى السادات الصحاب - ونالوا به المجد والثواب - بالهمم العوالي والاكتساب - وكذلك قوله عز وجل لنبيه الكريم المبجل صلى الله عليه وسلم [قل هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين ونحن نتربص بكم ان يصيبكم الله بعذاب من عنده او بايدينا] اى بعذاب ينزله من السماء او يظهره فى الارض بغير واسطة سبب بصاعقة او خسف او غير ذلك مما به العطب او بواسطة ايدينا رميا وضربا وطعنا بالقناء ويكون هو المعذب - كما قال جل و علا [وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى] وقد صرح بما ذكرنا من الخلق والكسب قول البارى قال [فانا قد فتنا قومك من بعدك واضلهم السامري] - فيا ليت شعري ما جواب المعتزلة عن هذا وامثاله - و ما ذا عسى ان يجيبوا فيا ليتهم فهموا قوله تعالى [ثم تاب عليهم ليتوبوا] فيرجعوا عن اعتقادهم الباطل والى الحق ينيبوا ويتحققوا الحق في قول الحق حاكيا عن الكليم الذي فضله [فتنا ان هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء] وعلى الجملة فليس يؤثر في جميع الوجود الا قدرة الموجد لكل موجود ولا يقع من جميع الاشياء في ملكه ما لا يشاء فلو لم يرد من احد عصيانا لما خلق لكل انسان شيطانا - بل ما كان يخلق للعتاب نارا ولا يسمى نفسه غفارا •

بسم الله الرحمن الرحيم
رب يسر واعن يا كريم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة والتسليم على رسوله سيدنا محمد النبي الكريم وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد :

فهذا سؤال أرسل به اليَّ بعض فقهاء الزيدية مشتمل على بعض المسائل الخلافية مما يتعلق بأصول الدين، وشيء من شبه المعتزلة المبتدعين وهذا لفظه :

ما يرى الشيخ فخر الإسلام وسيط عقد النظام وصدر المجالس ونور الحنادس[1] في : نفي الثاني عن الله تعالى بظاهر النص من قوله تعالى : ﴿ **فاعلم انه لا إله إلا هو** ﴾[2]، ولما يعلم من دين الأنبياء صلوات الله عليهم ضرورة ؟ هل هو مترتب على معرفة الله تعالى ؟ أو معرفة الله مترتبة عليه ؟ فإن قلتَ نفي الثاني مترتب على معرفة الله تعالى، فما الطريق إليها على مذهبك ؟

---

(١) الحنادس جمع حندس : الليل الشديد الظلمة.

(٢) سورة محمد الآية ١٩.

فان قلت : الطريق اليها السمع، كما تذهبون اليه فهي مشوشة عليك من وجوه : **أحدها**، أن السمع مفتقر إلى معرفة الله تعالى، ومعرفة الله تعالى مفتقرة إلى السمع، وهذا دور محض لأنَّا لا نعرف السمع حتى نعرف الله تعالى، ولا نعرف الله تعالى حتى نعرف السمع، فلا يحصلان ولا واحد منهما فبأيهما نعترف ؟

ومن أيهما نعتذر ؟

لعمر الله إنها مسألة مجمجمة الذوق محمحمة الشوق، تعتورها العقول وتتفاخر فيها الفحول، فأجب بفتق صميمها وقشر أديمها.

الثاني : انما يصح الاستدلال بكلام الله تعالى مهما كان عدل حكيم لا يفعل القبيح ولا يريده (قلتُ : هكذا لفظ السائل بالرفع، وصوابه بالنصب : عدلاً حكيماً) فأمّا تجويزكم القبيح عليه بكل الكائنات من وجوه الفساد من كفر وظلم وسوأة، فما الثقة بكلامه ؟

ومن ها هنا انسد عليكم بالنبوات من حيث جوّز شيخكم أبو الحسن الأشعري على الله تعالى اظهار المعجز على الكذابين. وما اعتذر به شيخكم ابن الخطيب الرازي من أن المعجز موضوع للتصديق وتجويزكم القبيح على الله تعالى لا يقدح في صدق الرسول، فإنما هو خلود من بحور الهوى، ومراوغة عن الحق وتَخبُّط في تيه الباطل.

وضجع شيخكم أبي حامد (هكذا قال. وصوابه بالرفع : أبو حامد) الغزالي على أصحابنا المعتزلة بكلام لم نفهم معناه من قوله : « الطبع قابل والعقل باعث والمعجز ممكن والرسول مبلغ ».

ولقد سألنا أعلم أهل زماننا عنه فقال : ما فهمنا غرضه من هذا الكلام، مع أنه الناقل لكلامه ومعترف بفضله من حيازه لقصبات السبق في الأصول الفقهية والمجاري القياسية.

الوجه الثالث : هب أنا سلمنا ان الطريق الى معرفته كلامه، فالكلام

من أصل اللغة ما وُضع لإفادة معنى. وهذا لا يتأتى على مذهب أصحابك، لأن الكلام عندهم ما قام بذات المتكلم، وكانت الحروف حكايات عنه، وكلام الله تعالى عندكم ليس بحرف ولا صوت. بل صفة واجبة لله تعالى كالقادرية والعالمية، وأن الذي بيننا ليس بكلام الله على الحقيقة.

فانظر إلى جلافة شيخكم أبي الحسن الأشعري وكيف استهواه الجهل وأفرط به العمى حتّى أنكر ما هو معلوم من دين الرسول ﷺ ضرورة، وحيث قال الله تبارك وتعالى: ﴿ **وإنْ أحدٌ منَ المُشْركين اسْتَجَارَكَ فأَجِرْهُ حتى يسمَعَ كلامَ الله** ﴾[1]، فوصف الله تعالى أن هذه الأحرف كلامه دون أن يكون شيء آخر كلام له (**قلت**: هكذا لفظ السائل بالرفع، وصوابه: كلاماً، بالنصب). ثم قال: ولم يحقق ما ذهب إليه من المعنى القائم بالذات فباع اليقين بالشك، وقد طوينا الكشح عن كثير من المسائل الدينية خوف التطويل حتى يبين الأنصاف أو القول بالخلاف. فالواجب على مَنْ قعد في دست العلماء ولبس شعارهم، المجاذبة لأهداب النظر والمقارعة بأسلحة الأنظار، كما ذهب إليه السلف من المشائخ المعتزلة ومشائخكم ومن سائر الفرق. فأَجِبْ شافيًا لا زلت ورد مستورد للأعلام (**قلت**: هكذا لفظه بالرفع، وصوابه: وردًا مستوردًا، بالنصب). والصلاة على سيد الأنام محمد وآله الكرام. انتهى السؤال.

[قال العبد الفقير الى لطف اللطيف الخبير] :

« عبدالله بن أسعد اليافعي اليمني الشافعي » نزيل حرم الله المشرف المعظَّم وحرم رسوله المحروس المحترم.

الجواب وبالله التوفيق

إن هذا السؤال فيه محاولة إيهام ظهور حجج المعتزلة علينا بإبداء

---

(١) سورة التوبة الآية ٦.

السائل شيئاً من شبههم وأراجيفهم التي لا تهولنا، ورميهم لنا بمنجنيق محض عقل عرضة للخطأ بأحجار اعتراضات في جدالنا لا تنال شوامخ حصون فروعنا، ولا تزعزع رواسخ قواعد أصولنا، التي هي في تأسيسها بين المعقول والمنقول من الكتاب والسُّنَّة والإجماع جامعة، الثابتة بالأدلة البليغة، والحجج المانعة، والبراهين القاطعة المسفرة عن محاسن السنة البيضاء، وعن مذهب الحق المؤيد بالتوفيق، وصحة الدليل النازل في أعلى معالي الشرف الأسنى، وذرى مفاخر المجد الأثيل الذي اشتهر فضله في المجامع والمشاهد، وفيه قلت من بعض قصائد العقائد :

نَحلَنا مَذْهباً يُجلي قَديماً ... لَهُ غُرُّ العُلى عَالِي الجَنابِ
مَشينَا فِي ضياءٍ مِنْ شُموسٍ ... وأَثمارٍ وَمِنْ رَبِّ الشهابِ
من المعقول والمنقول صِدقاً ... من الأخبارِ مع آيِ الكتابِ
رَوَيْنَاهَا بإسنَادٍ صَحيحٍ ... لنا، لا بافتِراءٍ واكتِذابِ
سلكنَا سُنَّةً بيضاءَ مَشَاهَا ... سوادُ مُعظمِ أهلِ الركابِ
ولم نركب بنيات الطريق التـ ... ـي فيها أتى نَهْيُ ارتكابِ
ولا يمشي بها إلاَّ شذوذ ... تمطو متن أخطارٍ صعابِ
وفي الأخبار جاء من شذَّ عن ذي ... سوادٍ شذَّ في نارِ العذابِ
مع التمثيل في القصوى من الشا ... لها قد خص في أخذ الذئابِ

قلت : ومن هذه الأبيات الأخيرة اشرت الى ما ورد : عليكم بالسواد الأعظم[1]، وما ورد : « إيّاكم وبنيات الطريق » وما ورد : « من شذَّ

(١) جاء في كتاب الابتهاج بتخريج أحاديث المنهاج للشيخ الغماري: ثنا العباس بن عثمان الدمشقي، ثنا الوليد بن مسلم، حدثنا معان بن رفاعة السلامي ثني أبو خلف الأعمى، قال: سمعت أنس بن مالك يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن أمتي لا تجتمع على ضلالة فإذا رأيتم اختلافاً فعليكم بالسواد الأعظم ». وفيه أبو خلف الأعمى، ضعيف.
قال الحافظ ابن حجر العسقلاني عنه في تقريب التهذيب ٢/٢٨٠: موسى بن خلف العمي ــ بتشديد الميم ــ أبو خلف البصري صدوق عابد له أوهام من السابق. روى له النسائي وأبو داود والبخاري في التاريخ الكبير وحديث أنس هذا رواه ابن ماجة في سننه، كتاب الفتن، باب السواد الأعظم ١٣٠٣/٢ حديث رقم ٣٩٥٠.

شذَّ في النار » وما ورد : « إنما يأخذ الذئب القاصية من الغنم ».

وفي مذهب أهل السنة ومَدْح أعلامه الائمة، قلت هذه القصيدة المسماة :بعقد اللآلي المفصل بالياقوت الغالي في مدح عقيدة أهل الحق ومذهبهم العالي والتغزل بالامام ابي حامد الغزالي وغيره من أئمتنا اولي المناقب والمعالي.

لنا مذهبُ شَمْسِ الهدى ناهجٌ جَلي ... ومذهب غير عن صدا الزيغ ما جُلي

عقيدتنا عقدٌ من الدرِّ والعلي ... على جيدِهَا في ثغرها السلسلُ الحلي

تحلَّت حلى آي الكتابِ فأسفرت ... عن السنَّة الحسنا وبرهانِها الجلي

وقالت بإجماعِ جميعِ محاسن ... ففاقَتْ سواها بالجمالِ المكملِ

لناظرها منَّا بزاهي جَمَالِهَا ... سَبَتْهم وعنها ذو اعتزالٍ بمعزلِ

أبَتْ أن تَرَى تلك الحلى غير كاشفٍ ... لأستارِ أسرار المعالي فتجتلي

خَبير بمكنونِ المحاسنِ مُهْتَدٍ ... لمفهومِ منطوقٍ وتفصيلِ مجملِ

بظاهِرِ نَصٍّ وَافَقَ العقلَ قائلٌ ... وما لم يوافِقْ من محال مُؤَوِّلِ

نأى عن حضيض الحشو نهج مشبّه ... وغالي اعتزالٍ للصِّفاتِ معطلِ

بنَهْجٍ وسيطٍ بينَ تفريطِ حامدٍ ... وإفراطِ غالٍ جاوزَ الحقَّ مبطلِ

شموسُ الهُدى سارت به وبدوره ... أُولو الرايةِ البيضاءِ والمنصبِ العلي

أيمتُنَا ما بين قطبٍ محقِّق ... مُشَاهِدِ أسرارَ إمامِ الهُدى ولي

وحبرِ إمامٍ في العلوم مدقِّق ... مفيدِ الوَرَى في كلِّ فنٍّ محصلِ

وتصنيفنا ما بين وَضْعِ قَوَاعدٍ ... اذا بجبالٍ صُودِمَتْ لم تزلزلِ

ورَفْعِ فروعٍ في حصونٍ شَوَامخٍ ... فما رميها عَنْ منجنيقٍ بموصلِ

لنا كم وجيز في بيانِ قواعد ... وجَمْعِ مَعَانٍ واختصارِ مطول

وكم من بسيطٍ في جلاء نفائسٍ ... وإيضاحِ إيجازٍ وحلٍّ لمشكلِ

وكم ذي اقتصادٍ مودع رب قاطع ... لإفحامِ خَصْمٍ مثلِ ماضٍ به اعتلي

بكفِّ همامٍ ذبَّ عن منهجِ الهُدى ... بحربِ نضالٍ لا يُرى غير أولِ

كمثلِ الفتى الحبرِ المُباهي بفضلِهِ ... فغني بغزالي العلا وتغزلِ

أبـي حامـد غـزال غـزل مدقـقٍ … مـن العلم لـم يغـزِلْ كـذاكَ بمغـزلِ

بـه المُصْطَفَى بَاهَى لعيسى بـن مريـم … جليـلِ العطايـا والكليـمِ المفضـلِ

أعندكـم حبـرٌ كهـذا فقيـل لا … وناهـيك فـي هـذا الفخـارِ المؤثـلِ

رآه الولـيُّ الشاذلـيُّ فـي منامـه … ويرويـه عنـه مـن طريـقٍ مسلسـلِ

رواه ولـيٌّ عـن ولـيٌّ لنـا وعـن ولـيٌّ … رواه ذاك عـن رابـعٍ ولـي

وعـن شاذلـيٌّ شاذلـيٌّ وهكـذا … وشيـخٌ فشيـخٌ مسنـداً غيـرَ مرسـلِ

كـذاك روينـا عنـه جلـد بـن حرزهـم … على الطعن في الإحياء من خير مرسلِ

عليـه صـلاة الله قـال ولـم يـزل … الى الموت أثر السوطِ في ظهره جلي

وأرويـه أيضـا مـع زيـاداتِ نصِّـه … بتحقيـقِ نقـلٍ عـن خبيـرٍ رواه لـي

فتىً جـدُّه الحبـر الإمـام ابـن حرزهـم … ابـو الحـ [illegible] المجلودِ في يومـه علـي

بقـي موجعـا خمسـا وعشريـن ليلـةً … لخيـرٍ يـراه بعـد مـن أجلـه ابتلـي

رأى المصطفى من بعدها جـا متوبـاً … ومولـيه مسحـاً شافيـاً مـا بـه بلـي

فشاهـدَ في الاحيـاءِ حسنـاً رسولنـا … بـه شاهـد مـع مـا بـه لـم أطـولِ

وزفَّتـهُ أمـلاك السمـا بعـد موتـه … لـه اخرجـوا من تحتِ تـربٍ وجنـدلِ

فالـبس خلعـاتٍ غـوالٍ أتـوا بهـا … من الخضر لـم تنسَـجْ وتغـزَلْ بمغـزلِ

واركبْ مركوبـاً مـن اللـون كائنـاً … حَكَى البرقَ إسراعـاً من الجوِّ منـزلِ

وراق الطبـاقَ السبعَ في الحالِ خارقـاً … وسبعين من حجبٍ الـى عـالٍ منـزلِ

بـذا شهـدَ الصيـادُ شيـخُ زمانـهِ … كما أشهد المذكورُ في كشفِهِ الجلي

وقـد شهـدَ المرسـيُّ استـاذُ عصـره … لـه مع شيوخِ الوقتِ بالمنـزلِ العلـي

وممـن رأىٰ ذاك المقـامَ إمامُنـا … وسيدُنـا نـورُ الهـدى شيخُنـا علـي

كذا الشاذلـيّ شيخُ المشائخ قـد حكـى … قضـا حاجـةِ الداعـي بـه المتوسـلِ

وسمـي لأصحـاب التصانيـف سيـداً … وذا قول إسماعيل شمسِ الهدى الولي

مقـر النـدى المشكـور شيـخ شيوخنـا … إمـامِ الفريقيـن الحبيـبِ المدلـلِ

هو الحضرمـيُّ المشهـورُ مَـنْ وقفت لـه … بقـولٍ قفـي شـمسُ لأبلـغ منزلـي

وكـم عالـمٍ قـد قـال جـاء لديننـا … بخمسٍ مئيـن كـي يجـددَ مـا بلـي

وتجديـدِ ديـنٍ في الحديث بمحـدث … بـراس مئيـن فـي الأيمَّـة مجمـلِ

ففي المائة الأولىٰ رواه خليفةٌ … فيا ما لها من بعده مثله ولي

وذاك ابنُ عبدٍ للعزيز الذي سما … بسيرته الحسناءِ ذو المنزلِ العلي

وخيرُ وجودِ بحرِ جودٍ رأى الملا … إمامِ الأنامِ الشافعي له يلي

له منصبٌ في العلم والفهم والهدى … شهيرٌ وفي الآفاق مذهبُه جلي

فريدُ زمانٍ في المناقبِ سابقٌ … بوَضْعِ أصولِ والحديثِ معللِ

ومن بعدِه للدين شيخُ أصوله … وكاسي شعارِ الحقِّ كم من مضللِ

أبو الحسن المشهور بالأشعري الذي … له حجةٌ كالطود غيرِ مزلزل

ومن بعد في التجديد أكرِمْ برابعٍ … إمامِ الهدَى الحبرِ النجيبِ المفضلِ

هو الباقلاني بحرُ علمِ أصولنا … تلاطم أمواجاً بها الكونُ قد ملي

حَوَى للمعالي والمحاسن قد زها … ببستانِ فضلٍ مزهرِ الكونِ مبقلِ

وخامِسُهم حَبْرٌ مضىٰ ذكرُ فضله … سراجٌ به داجي الضلالات مُنْجَلي

إمامُ الهُدى المنبي عن الفضلِ منشداً … سبوقاً على المَهْرِ الأغرِّ المحجَّلِ

غزلتُ لهم غزلاً دقيقاً فلم أجِدْ … لغزلي نساجاً فكسرتُ مغزلي

مشيراً الى علمٍ به متميزٌ … عن إدراكه فَهْمُ الألبا بمعزل

تصانيفُه فاقت بنفعٍ وكثرةٍ … وحلةِ حسنٌ لم بها الغيرُ يرفلِ

وكم حجةُ الإسلامِ حازَ فضيلةً … وكم حليةٍ حسنا به فضلُها حَلي

بها جاهلٌ مع حاسدٍ طاعنٍ فذا … تَعامىٰ وعنها ذاك أعمى قد ابتلي

وما ضرَّ سلمى ذَمُّ عالي جَمَالِها … ومنظرِهَا البَاهي ومنطِقِها الحلي

لكن ذمَّها جاراتُها ونظائر … وَعِبْنَ جمالاً في حلاها وفي الحلي

فما سلِمَتْ حسناءُ من ذمِّ حاسدٍ … وصاحبِ حقٍّ من عداوةٍ مبطلِ

إذا في الفتى زادَ النَّدى زادتِ العِدى … وقيت الرَّدَا قُلْ في الهدى وتمثَّلِ

دليل العلا كثر البلا هكذا الملا … ولولا احتراقُ التّبرِ بالنارِ ما غلي

جلا لي مديحٌ في مليح أيمة … وليس كغزالي حلا لي تغزُّلي

فمدحي كعقدٍ من لآلي أيمة … بياقوت غزالي المعالي مفصلِ

وكم من إمام غير من قد مضى لنا … منَ الفضلِ والعلياءِ بالمنزلِ العلي

كحبرٍ شهيرٍ بارعٍ ماجدٍ أبي المـ … ـعالي النجيبِ ابن النجيبِ المبجَّلِ

فتـى فحـلُ نظـارٍ وكـبتُ مناظـرٍ ومفتـاحُ مغـلاقٍ ومرهـمُ معضـلِ
وخيـرُ إمـام إسفرائينـي جـلا عـرائس فضـلِ سافـراتٍ لمجتلـي
وذي الفضلِ واليُمْنِ الإمامِ ابنِ فورك بحلةِ حسـنِ العلمِ والديـنِ مجتلـي
وحبـرٍ أخيـر فـي المعالـي مقـدمٍ إمام الهـدى الـرازي بفخـرٍ مجمـلِ
وحبر ببيضا قـد جلـى بـيضُ فضلِـهِ فضاءَ الدجا مـن وجهها المتهلـلِ
وعزٌّ لعزِّ الديـنِ ديـنِ الهـدى كمـا عقيدتُـه الحسنـا حلـى فاخـرِ الحلـي
كـذلك محيي الديـن أحيـاه إذ سـقت تصانيفُـه الحُسنـى الـورى عـذبَ منهـلِ
إمامـا علـومٍ لكـن الفقـه غـالبٌ جليـلان حَـلاً مـن قلـوبٍ بمنـزلِ
على عشـرةٍ رمت اقتصـاراً وكـم لنـا مجيـد مقـالٍ للأصـول مفصـلِ
كمثل الإمام البيهقـي منهـجِ الهـدى فتـى الفضـلِ والتحقيقِ حبـرٍ مفضـلِ
وحبرِ الهـدى بحـرِ المعالـمِ والنَّـدى الفتـى الفاضـلِ الخطابـيِّ المتفضـلِ
وكائـن دقيـقِ العيـدِ حبـرٍ وراتـق لمفتتـقٍ فتـاق رتـقٍ بمشكـل
وكـل إمـامٍ ذي مقـالٍ محقـقٍ ومعتقـدٍ فـي أصـلِ علـمٍ معلـلِ
كأشياخِنا الساداتِ مـن كـلِّ عـارف من الـراحِ فـي روضِ الوصـالِ معلـلِ
مُسقَـى بكاسـات الهـوى من مدامـه بهـا رُبَّ نشـوانٍ معـلٍّ ومنهـلِ
إذا ذاقهـا صـبٌّ أرَتْـهُ جمـالَ مـن يـحبُّ وأروتـه بأعـذب منهـلِ
وإن شمَّ تلك الـراحَ خـالَ عـن الهـوى يـرى الدهـر مشغـولاً بـه ذلك الخلـي
وان سقـيت نهـلاً وعـلاً مقربـا يوليـه ملكـاً كـم ولـيّ لـه ولـي
كمثـلِ شيـوخٍ عازفيـن ثلاثـة شمـوس الهـدى أربـاب مـلكٍ مخـولِ
مربيـن مـا منهـم يـرى غيـر مرشـد الـى الله بـالله الموفـق موصـلِ
عقائدهـم مشهـورةٌ شـاعَ ذكرُهـا وعـن فضلهـا داري فضائلهـا سَـلِ
وكـن مثلَهـم فـي حبِّ مـولاك مشغفـاً فمـا منهـم عـن حبِّ مولاهـم سَلـي
أبي القسـم المولـى القشيـري حبرهـم إمـام هـدًى لـم فضلـه قـط يجهـل
وشيـخ الوجـودِ السهـروردي من جـلا معارفـه الحسنـى بزهـو لمجتلـي
وشيخ الهـدى بحـر الكرامـات والندى الفتى القرشـي المولـى الوجيـه المجلـلِ
أولـئك أشيـاخ لنـا وأيمـة نباهـي بهـم فـي كـل نـادٍ ومحفـلِ

فيا ذا اعتزالٍ هل شيوخُك مثلهم ... تفاخرنا بل أنت عن مثلهم خَلي

فما حجةُ الإسلام مع شيخه أبي ... المعالي واستاذِ الهدى طب معضلِ

ككعبَيْ ضلالات ونظام بدعة ... وجبائي الزيغ الضليل المضلل

ثلاثتكم إن بارزوا كثلاثة ... دعوا لبرازٍ يومَ بدرٍ معجلِ

فما لبثوا إذ ذاك إلا هنيهةً ... وحانَ حلولُ المستحقُّ المؤجلِ

بأيدي ضراغيمٍ صوارم ثلاثةٍ ... قد انصرفت عن رب قرب مجدل

ضراغيمنا في كل أرض شهيرة ... بغاباتها من حولها نشو أشبل

وأقمارُنا في كل أفق منيرةٌ ... بها يُهتَدى في كل سهلٍ وأجبلِ

زهت في سما عليا مناهج وافقت ... عقائدها حقًّا بها لم اطولِ

سوى عشرة من شافعيات منهج ... وبضع منيرات زواهر كمَّلِ

وبدري هدىً في المالكيات رابع ... بتجديدِ دينٍ والقريشي المفضلِ

وبدرَيْن منها شاهدين لبدرنا ... بمجدٍ وسعدٍ جامع اليمن مقبلِ

بدور كلا النهجين زاهٍ بهاؤها ... بأنوارها ظَلْما الضلالاتِ تنجلي

وفي حنفيات لطيف سحابة ... أتاها من التكوين غير مبدلِ

وفي حشويات كسوفان أظلما ... وعن نهجها حاشي الإمام ابن حنبلِ

هما جهة ما بين شمسٍ وبينها ... تحول وحرف في الكلام المنزل

ورامد أصوات وبحة قارئٍ ... وحرفا كلامِ الله والعرش يحللِ

ونهج اعتزالٍ مع سواهم كلامه ... تباركَ مخلوق بجسم مقولِ

أرادوا بصوتٍ مع حروفٍ منطقاً ... لها بافتراءٍ منهم وتقوُّلِ

فقالوا كلام الجسم ذاك مصرحاً ... ولا ينسبوه قطٌّ للواحدِ العلي

وليس لكم عن ذا محيصٌ ولا لكم ... خلاصٌ بما جئتم به من تخيُّلِ

فقلتم كلام في جماد فجئتم ... بتخييل فرق موهمٍ ذا تخيُّلِ

وما رَوْمُ تدليس علينا بجائزٍ ... فما بينه والحي فرق مفصلِ

فما خلق إدراك وقدرة منطق ... له بمحال لا ولا ذا بمشكلِ

فما الأُصل في الأشياء إلا خفيةً ... فان لا دليل ليس غير مبطلِ

تسبِّحُ كلُّ الكائناتِ بحمدِهِ ... ودعوى مجاز فيه قولٌ لمبطلِ

فهـلا كـلام مـن ذراع مسمـمِ ... جعلتم كلامَ الله حتى له تلي

بمذهب كل من اولي الربع ضحكة ... مصبحة الباكي الحزين المثكلِ

ففي الباطني كلُّ الدوابِ مكلفٌ ... لها أنبيا يوحى الى كل مرسَلِ

ومن عجب ثور نبي بقربه ... وتيس خصوه مع حمار محملِ

ولا بعث والتكليف نارٌ وجنةٌ ... لنفس زكت عَوْداً الى الفلكِ العلي

وفي الرافضي جبريل أخطا بوحيه ... الى أحمد لم يرسل إلا إلى علي

فيا عجباً من مارق في ثلاثة ... وعشرين عاماً للإله مجهلِ

وكم ملحدٍ في العالمين مجسم ... وكم مارقٍ زنديق دين معطلِ

إذا للصغير والكبير المعطل ... لقيت، لقيت التيس يمشي مع الطلي

وللكل كم سخرية وفضيحة ... وأعجوبة تحكي بها لم أطول

ويا طالباً حفظَ اعتقاد محقق ... خلا عن عيارٍ صافياً عذبَ منهل

تلق عقيدَ الحق في خمسةَ عشر ... من النظم تجري حافظاً عن مطول

تعالى إله عن شريكٍ ووالد ... وولدٍ وزوجات ووصفٍ ممثل

سميعٌ بصيرٌ عالمٌ متكلمٌ ... مريد وحي مصدر كلُّها يلي

بقدرته العظمى وإتقان حكمةٍ ... يرى الكونَ في كن كان بالقهر معتلي

علا بجمالٍ فيه مجدُ جلالٍ ... بعز كمال الكبرياء مكللِ

صفات على جلت وجلّ جلالها ... عقول الورى معقولة عن تعقُّلِ

وكفهم عن كيفٍ مع أينٍ نافياً ... حروفا وخلقا للكلام المنزل

ولا واجب حاشا عليه وحاكم ... هو الشرع دون العقل عِ القولَ واعقلِ

وفي قدر مع رؤية مع شفاعة ... وحوضٍ وتعذيب بقبر ومبتلي

وبعثٍ وميزان ونارٍ وجنة ... وقد خلقا ثم الصراط وللولي

عظيم كرامات فكل شريعة ... محا خير شرع جا به خير مرسلِ

فآمن وسلم للصحابة واعتقد ... جميعا وبجِّلْهُم وكالقوم فاعمَلِ

وأقبِلْ على السادات وَاقبَلْ مقالهم ... وبين أيادي القوم للأرض قبلِ

وقَدِّم أبا بكرٍ كما للعلى علا ... وبالليث ربع ذي المقام العلي علي

كما قدموهم هم نجوم الهدى فعن ... هداهم فلا تعدل بذلك تعدلِ

وتخليد نار خصه كافراً ولا ... بكفر لأهل القبلة افهَمْهُ وَاقْبَلِ
تباهت وفيها قد بدا لي توقف ... تأخر كتبي بعد حزمي بأول
مجانبة التفضيل في الآخرين أو ... لثانٍ أرى في الفضل رابعهم يلي
وفي ذا اختلاف عن ظنون تعارضت ... ودون جمال العلم إرخاء مسبل
وقد قال منا قائلون بكل ما ... توقفت عن حرم الأيمة ما خلي
وقد وقف الفاروق في فضل ستة ... وذاك الذي القرآن في وفقه تلي
ومع ذا فترتيب الملا في خلافه ... لذاك وجوه غيرها في المفصل
وقلبي بحمد الله في حب كلهم ... وعلم بما جا في على الكل ممتلي
ومن بعد ذا أوصيك بالخير والتقى ... وترك التواني والورى دع واقبَلِ
ولا تك مثلي عاجزاً متخلفاً ... عن الخير والدين النصيحة فاقبَلِ
وقد صحَّ أن المرء مع مَنْ أحبه ... فاحبب لأصحاب الهدى والتبتُّلِ
ولازِمْ وداوِمْ قرعَ بابٍ مؤملاً ... فما خيَّبَ المولى رجاءَ مؤملِ
ولليافعي بالله فادعُ برحمة ... ونيل المنى في عاجلٍ ومؤجلِ
فما هي ثَنَتْ لا عن كلالٍ عنانها ... ومع مائة سبعون زاهرة الحلي
بها واحد ياقوتة مستعارة ... مضمنةٌ في عقد در مفصَّلِ
وكم عند هذا تستعرُ من أجانب ... فما ران من حلي الأجانب يحتلي
تحلّت بعقد من لآلي عقيدة ... يضيء الهدى في وجهها المتهلل
اذا ابتسمت في الليل عن درسنة ... رأيت دياجي الابتداعات تنجلي
وتمَّتْ بحمد الله أزكى صلاته ... على المصطفى فاحَتْ بمسكٍ ومندلِ

قلت : وقد رأيتُ أن أنبِّه على شيء في هذه القصيدة، وهو قولي في تفسير أحد كسوفي المذهب المذكور : «هما جهة ما بين شمس وبينها تحول». أعني حالت الجهة العلوية بين القائلين بها من الأقمار الأرضية وبين شمس الحضرة القدسية فخسفت، كما في حيلولة الأرض بين الشمس والقمر المذهبة لنور طلعته البهية على قول من قال : ان الأفلاك كروية على وجه الاستعارة، على تقدير صحة قول الفلكية. مع أني قد استدللت على بطلان قولهم هذا بعشرة أدلة عقلية ونقلية

في « **كتاب سراج التوحيد** » واضحة جلية، وتكفي في الدلالة على ذلك قوله تعالى : ﴿ **حتى بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب من عين حمئة** ﴾[1] وذلك من أقوى الأدلة القطعية إذ أخبر ببلوغ ذي القرنين مغربها ووجوده لها تغرب في تلك العين وجداناً لا في رأي العين، مع تأكيد ذلك بوصف العين المذكورة، إذ هي موصوفة في الكتاب الممجد بالحمأة التي هي الطين الأسود. فمن قال انها لا تزال تدور وليس لها مغرب فهو بظاهر كلام الله عز وجل مكذِّب.

وكذلك قولي : « وزفّته أملاك السماء بعد موته » الى آخر الأبيات الخمسة، أشرت بذلك الى ما اشتهر وثبت بالإسناد في سيرة الشيخ الكبير العارف بالله ابي العباس الصياد، قدسَ الله روحه.

---

(١) سورة الكهف الآية ٨٦

منزلة الغزالي رضي الله عنه(١)

ومختصر ذلك أنه قال، رضي الله عنه : بينا أنا ذات يوم قاعد وأنا انظر الى أبواب السماء وهي مفتحة اذ نزلت عصبة من الملائكة ومعهم خلع خضر ودابة من الدواب، فوقفوا على رأس قبر من القبور وأخرجوا شخصاً من قبره وألبسوه الخلع، وأركبوه على الدابة فصعدوا به الى السماء. ثم ذكر أنهم لم يزالوا يصعدون به من سماء الى سماء حتى جاوز السموات السبع، وخرق بعدها سبعين حجاباً. فأحبَّ أن يعرف من هو ذلك الشخص ؟! فقيل له : هذا الغزالي رضي الله عنه قال : ولا علم لي أين بلغ انتهاؤه.

قلت : وأما ما أشرت اليه من مباهاة النبي ﷺ للمنكر عليه فسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

قلت : وفي استحسانه ﷺ لإحياء علوم الدين، دليل واضح على كون ما تضمَّنه من [أن] عقيدة الأشعرية حق، وكذا ما اشتمل عليه من طريق الصوفية وعلومهم وأحوالهم وكراماتهم، والله أعلم.

قلت ايضاًفي مذهبنا هذه الأبيات :

لَنا حصنٌ عزَّ مَنْ عَلاَ مَجدُ مذهب ... بأعلى سَمَا مَجدِ المفاخرِ شامخ

قواعـده الغـرّا كتـابٌ وسنَّـةٌ ... وعقل واجماع أصول رواسخ

---

(١) جميع عناوين الكتاب هي من وضع المحقق.

اذا ما رمى من منجنيق اعتزالهم بجلمُودِ عقـلٍ للتجـادل دائـخ
فلا لاحق فزعـاً ولا بمزعـزعٍ لأَصل ولا بعضاً عنِ البعض فاسخ
حكم شرعٍ دون عقلٍ خلاف مَن بعقل عن الشرع الأحاديث سالخ
وقد جاءَ لا تعذيب من قبل بعثه بشرعٍ لمجموع الشرائع ناسخ
ولا ناسخ يلغي لمحكم حكمة الى حين إسرافيل في الصور نافخ

اقتراح السائل بالجواب والإعراض عنه

قلت : فلما أرسل السائل بالسؤال المذكور اليّ واقترح جوابه عليَّ، لم ينشرح صدري للجواب في الحال؛ بل مال الى الإعراض عنه والإهمال، لكون الهوى على القلوب قد استحكم واتباع الباطل قد أعمى وأصمَّ، فلا يكون المبطل يتبعه بل يدفعه بالجدال والمراء. ثم انشرح صدري بعد مدة لهذا الجواب ورأيت أنّي إن سلكت فيه مسلك البسط والإطناب احتجت في ذلك الى تصنيف كتبٍ لا كتاب أبيِّن فيها قواعدنا وما أشكل من كلام الأصحاب، واستوعب مسائل الأصول وأدلتها في المعقول والمنقول في سائر الأبواب. مع كوني قد التزمت فيما مضى تَرْكَ التصنيف وسدَّ هذا الباب، فاقتصرت على شيء من البسط في الكلام بعبارة واضحة غير نائية عن الأفهام. ولولا وجود بعض الأعذار لبلغت جهدي في ردٍّ ايراد، وابطال اعتراض، وبيان قواعد، وكشف الخمار عن جمال عقيدة أهل السنَّة التي هي أجمل العقائد، ومحاسن معاني ما أشكل على السائل وأمامه من ألفاظ حجة الاسلام أبي حامد وسائر كلامه المشتمل على بداعة المعاني، وملاحة الترتيب، وعجائب الأمثلة، وغرائب الفوائد، التي مَنْ كشفت له العناية عن جمالها فنظر بعين التوفيق لمحاسنها السنية سلبت عقله وهام في هواها، وصار مِن عصابتها السنية. وفي هذا المعنى المذكور انشد وأقول :

مدح عقيدة أهل السُّنة

لنا سُنَّةٌ حَسْنا سنى جمالها … على غير سنى مصون مخدرُ
فان كشفت ريح العناية خدرها … فأَبْصَرَهَا من لم لها قط يبصرُ
سبت عقله الزاكي بزاهي جمالها … فهام بها مَنْ كان عنها ينفرُ
وجا منهجاً من نورها ناهجاً بِهِ … عصابتها تعلو وتزهو وتفخرُ
أبو حامد منهم وكم من ملاحة … لها حجة الإسلام عنها تخبرُ
إمامُ الهدى بحرُ العلوم وكاشفٌ … لأستارِ أسرارِ العلومِ المنورُ
فكم من ستورٍ كاشفاً عن محاسن … فلاح دُرُّ الفاظٍ على تلك ينثرُ
فأضحت مليحات المعاني ضواحكاً … كما بمليحٍ عن مليحٍ تعبرُ
ومَنْ كان قد باهى به سيد الورى … لموسى وعيسى فهو نعم المعبرُ
ونعم طريق سَارَهَا عن بصيرةٍ … ونورٍ وتوفيقٍ بها هو أخبرُ
أعندكم حبرٌ كهذا ؟ فقيل : لا … وناهيك ذا مَجْدٌ على الدهر مفخرُ
عن المصطفى صلى عليه الهنا … بذا الشاذلي بحر الحقائق مخبرُ
مناماً رآه عنه يرويه عالياً … لنا كابرٌ عن كابر هو أكبرُ
يحق لنا أن قد سلكنا طريقةً … بها سار يرضاها النذير المبشرُ
لها المصطفى مستحسنٌ ومعاقبٌ … لمنكرها جلداً مدى الدهرِ نشكرُ
بذا صح إسنادي عن ابن حرازم … فقيه بلاد العرب اذ كان يذكرُ

مدح كتاب إحياء علوم الدين

قلت : قد أوضحت ما اشرت اليه في هذين البيتين الأخيرين في كتاب « **كفاية المعتقد ونكاية المنتقد** » في فصل « سلوك الطريقة والجمع بين الشريعة والحقيقة ». ومختصر ذلك :

ان الشيخ الإمام أبا الحسن بن حرزهم ــ بكسر الحاءِ المهملة وسكون الراء وبعدها زاي ــ المشهور بابن حرازم، رضي الله عنه، رأى ليلة جمعة في المنام كأنه داخل من باب الجامع الذي عادته يدخل منه.

وإذا بالنبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما جلوس في مكان من الجامع والنور على ذلك المكان ساطع. وكان قد بالغ في الإنكار على « **كتاب الإحياء** » وامر بجمع نسخه وعزم على إحراقها يوم الجمعة[1] المذكور لكونه بزعمه خلاف السنة. واذا بالإمام أبي حامد الغزالي، رضي الله عنه، قائم تجاه النبي ﷺ. فقال : يا رسول الله هذا خصمي؛ فان كان الأمر كما زعم تُبْتُ الى الله تعالى، وإن كان شيئاً تستحسنه يا رسول الله حصل لي من بركتك فَخُذْ لي حقي من خصمي. ثم جثا على ركبتيه وصار يزحف عليهما الى أن وصل الى النبي ﷺ. فناوله « **كتاب الإحياء** » وقال : انظر فيه يا رسول الله. فنظر فيه ﷺ ورقة ورقة الى آخره ثم قال : « والله إن هذا شيء حسن ». ثم ناوله أبا بكر فنظر فيه كذلك، ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق يا رسول الله انه لحسن. ثم ناوله عمر فنظر فيه كذلك ثم قال كما قال أبو بكر.

فأمر ﷺ بتجريد المنكر المذكور وضربه حَدَّ المفتري فجرِّد وضرب ثم شفع فيه أبو بكر رضي الله عنه بعد خمسة أسواط، وقال : يا رسول الله انما فعل هذا اجتهاداً في سنتك وتعظيماً لها، فغفر له[2] أبو حامد عند ذلك.

فلما استيقظ من منامه وأصبح، أعلم أصحابه بما جرى له ومكث خمسة وعشرين يوماً[3] وجعاً من ذلك الضرب. ثم رأى النبي ﷺ

---

(١) « وطلب من السلطان ان يلزم الناس بذلك، إذ أنه كان شيخاً مطاعاً في بلاد المغرب » ــ طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٥٨/٦ وما بعدها.

(٢) « فعفا عنه » في طبقات السبكي بدلاً من « فغفر له ». غفر له ».

(٣) من طبقات السبكي ٢٦٠/٦ ومكث قريباً من الشهر متألماً من الضرب ثم سكن عنه الألم. عنه الألم.

مسح يده الكريمة المباركة عليه فشفي قلبه وقالبه، ثم نظر في « الاحياء » ففهمَهُ فهماً خلاف الفهم الأول ثم فتح عليه ونال من المعرفة بالله والعلم الباطن والفضل العظيم ما نال برحمة الله الكريم[١].

قلت : فهذا مختصر ما رويناه بالأسانيد الصحيحة عن الشيخ الكبير العارف بالله الشهير ابي الحسن الشاذلي[٢] رضي الله عنه، وعن بعض ذرية الشيخ الكبير العارف بالله ابن حرزهم المذكور رضي الله عنه، هو عندهم معلوم ومستفيض مشهور، وفي سيرة جده مذكور محقق مسطور. أخبرني بهذا المذكور الراوي المذكور من ذرية الشيخ المذكور محرماً خاشعاً جاثياً على ركبتيه في الحرم الشريف زاده الله شرفاً.

قال الشيخ الإمام أبو الحسن الشاذلي : ولقد مات يوم مات وأثر السياط ظاهر على جسمه. أخبرني بذلك الشيخ الجليل العارف بالله الفضيل الإمام شهاب الدين بن المتلق[٣] الشاذلي عن الشيخ الكبير العارف بالله ياقوت الشاذلي عن شيخه الشيخ الكبير العارف بالله قدوة المساكين

---

(١) ذكر هذه الحكاية الإمام السبكي في كتابه الجليل طبقات الشافعية الكبرى ــ الطبعة الأولى ٢٥٨/٦، ٢٥٩، ٢٦٠

(٢) علّق الإمام السبكي على الحكاية المذكورة عن ابن حرزهم قائلا : « وهذه حكاية صحيحة حكاها لنا جماعة من ثقات مشايخنا عن الشيخ العارف ولي الله ياقوت الشاذلي، عن شيخه السيد الكبير، ولي الله تعالى أبي العباس المرسي، عن شيخه الكبير ولي الله أبي الحسن الشاذلي رحمهم الله تعالى أجمعين ».

وأبو الحسن الشاذلي هو علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي ــ بالشين والذال المعجمتين، وشاذلة قرية من افريقية ــ الضرير الزاهد، نزيل الاسكندرية، وشيخ الطائفة الشاذلية ... صحب الشيخ نجم الدين الأصفهاني وغيره، وحجّ مرات، ومات بصحراء عيذاب وهو قاصد الحج، فدفن هناك في ذي القعدة سنة ٦٥٦هـ. ترجم له ابن عطاء في لطائف المنن.

انظر : الطبقات الكبرى للشعراني ٤/٢ ط. محمد علي صبيح بالأزهر.

(٣) كذا في النسخة الهندية.

بحر المعارف ومعدن النور القدسي أبي العباس المرسي عن شيخه ابي الحسن الشاذلي المذكور معدن العلوم والأسرار والنور شيخ شيوخ العارفين رضي الله عنهم أجمعين. والى هؤلاء الشيوخ الأربعة أشرت بقولي فيما تقدم :

رواه وليٌّ عن وليّ لنا وعن ... وليّ رواه ذاك عن رابع ولي

الجواب

وها أنا أشرع فيما ذكرت من الجواب والله الموفق للصواب.

فأما قول السائل **أولاً**: في نفي الثاني عن الله تعالى في قوله عز وجل: ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله** ﴾[1] هل هو مترتب على معرفة الله تعالى أو معرفة الله تعالى مترتبة عليه ؟ فكان ينبغي أن يقول نفي إله غير الله لمطابقة الآية التي ذكر، فإنها نافية لكل إله سواه عز وجل وليس فيها لتعلق ذكر الثاني مدخل. وان يقول : أم معرفة الله بـ « أم » عوضاً عن أو.

وامّا ما ذكره من ان الطريق الى معرفة الله تعالى السمع عندنا، فليس بصحيح، بل الطريق اليها عندنا وعندهم النظر. لكن عندنا يجب النظر فيها بالسمع وعندهم بالعقل؛ فالسمع عندنا طريق الى معرفة وجوب النظر الموصل الى المعرفة لا الى المعرفة نفسها، كما زعم، لأن الأمر بها موجب للنظر المعرف وقد يخلف النظر بخلف امتثال الأمر فتخلف المعرفة لخلف المعرف، ولا يلزم وجوده وجودها. أعني لا يلزم من وجود الأمر الذي هو السمع وجود المأمور به الذي هو المعرفة. ودليلنا

(١) سورة محمد الآية ١٩

على أن الموجب للنظر فيها هو السمع دون العقل : النقل والعقل. أما وجوب ذلك بالسمع فيدل عليه النقل، وأما عدم وجوده بالعقل فيدل عليه العقل والنقل.

أما **الأوّل**، وهو قولنا أن الموجب النظر فيها هو السمع، فقوله تعالى : ﴿ **قال انظروا ماذا في السموات والأرض** ﴾[1] ونحو ذلك من الآيات الكريمات، وكذلك الاجماع، كما سيأتي كلام إمام الحرمين في ذلك في « الفصل الرابع » إن شاء الله تعالى.

وأما **الثاني**، وهو عدم وجوبه بالعقل فسيأتي بيانه هادماً لجميع ما بنوا عليه مذهبهم الفاسد من التحسين والتقبيح العقلي في جميع العقائد.

وأما **جواب السؤال** عن أي من نفي الثاني ووجود المعرفة مترتب على الآخر، فلنقدم على ذكره بيان الطريق الموصلة الى المعرفة. فبذلك يتضح إن شاء الله بيان الطريق الى معرفة الصانع جلَّ وعلا.

اعلم أن الطريق الى معرفته تبارك وتعالى هي النظر في مصنوعاته في الملكوت العليا والسفلى، وما اشتملت عليه من الإتقان والانتظام والحكم والإحكام؛ وغير ذلك مما يشهد بوجود الصانع وجلاله وعظمته وكماله تعالى في ذاته وصفاته.

قال قدوتنا وسيدنا الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي؛ — رضي الله عنه — : وأولى ما يستضاء به من الأنوار ويسلك من طريق الاعتبار ما ارشد اليه القرآن، فليس بعد بيان الله بيان. وقد قال الله تعالى : ﴿ **ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً وخلقناكم أزواجاً** ﴾ الى قوله تعالى : ﴿ **ألفافاً** ﴾[2].

---

(١) سورة يونس الآية ١٠١

(٢) سورة النبأ الآيات ٦ — ١٦

وقال تعالى : ﴿ **إن في خَلْق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس** ﴾ الى قوله تعالى : ﴿ **لآيات لقوم يعقلون** ﴾[١].

وقال تعالى : ﴿ **ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً** ﴾ الى قوله تعالى : ﴿ **ونخرجكم إخراجاً** ﴾[٢].

وقال تعالى : ﴿ **أفرأيتم ما تمنون** ﴾ الى قوله تعالى : ﴿ **نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين** ﴾[٣].

قال : وليس يخفى على مَنْ معه أدنى مسكة إذا تأمل بأدنى فكرة مضمون هذه الآيات، وأدار نظره على عجائب خلق الله في الأرض والسموات، وتدبر **فطرة الحيوان والنبات** أن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغني عن صانع يدبره، وفاعل يحكمه ويقدره، بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت التسخير ومصرفة بمقتضى تدبير، لذلك قال الله تعالى : ﴿ **أفي الله شك فاطر السموات والأرض** ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ **ولئن سألتهم مَنْ خلق السموات والأرض ليقولُنَّ الله** ﴾[٥]. انتهى مختصراً.

وسيأتي أيضاً بيان حكم النظر في إفادة العلم ووجوبه في معرفة الله سبحانه في **الفصل الرابع** ان شاء الله تعالى.

قلت : وإذا تأمل الناظر في الوجود وأحواله المختلفة من الصنعة المتقنة المؤتلفة البديعة المحكمة العجيبة المنتظمة، وما فيه من تغيُّر الأحوال، وتقلُّب الأيام والليال، وشاهد جميعه ناطقاً وشاهداً بلسان

---

(١) سورة البقرة الآية ١٦٤

(٢) سورة نوح الآيات ١٥ ــ ١٨

(٣) سورة الواقعة الآيات ٥٨ ــ ٧٣

(٤) سورة إبراهيم الآية ١٠

(٥) سورة لقمان الآية ٢٥؛ والزمر ٣٨

الحال بتصديق قول الحق الملك الديان : ﴿ **كل يوم هو في شأن** ﴾[1] ومناسبة أسمائه الحسنى تبارك وتعالى، إذ من جملتها : القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، المحيي، المميت، المقدم، المؤخر وقوله عز وجل : ﴿ **ان مع العسر يسراً** ﴾[2]، وتأكيد ذلك بإعادة اللفظ ثانياً لتأكد وقوعه لا محالة، وتحقيق العلم بنفوذ حكم القضاء السابق المطابق للحكمة البالغة بذلك، واستمرار هذه الحالة حتى علم ذلك بالاستقراء، وأنشد فيه الشعراء من ذلك قول بعضهم :

اذا ما رماك الدهر يوماً بنكبة ... فهيِّئْ لها صبراً وَوَسِّعْ لها صَدْرا
فـان مقادِيـرَ الزَّمَـانِ عجيبـةٌ ... فيوماً نرى يسراً ويوماً نرى عسرا

وقول آخر :

دَعِ المقاديرَ تجري في أَعِنَّتِهَا ... ولا تَبيتَـنَّ إلا خالـي البـالِ
ما بين غمضةِ عينٍ وانتباهها ... يقلب الدهرُ من حالٍ الى حالِ

وقول آخر :

ولمـا وَقَفْنَـا للسـلامِ تِبـادَرَتْ ... دموعٌ إلى أن كدتُ بالدمعِ أغرقُ
فقلت لعيني هل مع الوصل عَبْـرَةٌ ... فقـال : أَلَسْنَـا بَعْـدَهُ نَتَفَـرَّقُ

حكاية

قلت : ومن هذا ما سمعت من بعض شيوخنا قدس الله أرواحهم : يحكى أنه مَرَّ إنسان في الأزمان على راعي غنم في بعض البراري

(١) سورة الرحمن الآية ٢٩
(٢) سورة الشرح الآية ٦

وهو طرب يغني والأرض مجدبة، والناس في ضيق وحزن، فتعجب منه. ثم غاب ورجع فوجد تلك الأرض مخصبة، والناس في سعة وفرح وهو يبكي. فازداد عجباً منه، ثم سأله عن فرحه، وعن حزن الناس، وحزنه وقت فرحهم فقال: أما فرحي فيما مضى فكان استبشاراً بهذا الخصب الذي ترى، وامّا حزني الآن فلتوقع الجدب فيما يأتي من الزمان.

قلت: ومن هذا وأمثاله ما يطول ذكره من الشواهد والبرهان على وحدانية إله ليس له ثانٍ، ومطابقة ما قدَّمنا من تصديق قوله تعالى: ﴿**كل يوم هو في شأن**﴾[1].

وكذلك يشهد على وحدانية الإله المعبود، وعظيم ما اتصف به من القدرة، والعلم والفضل والجود، وُجُود الوجود على أكملِ نظامٍ وأحسنه وأحكمه وأتقنه، والى شيءٍ من الشواهد أشرت حيث **قلت** في بعض القصائد:

له كل ذرات الوجود شواهد	على أنه الباري الإله المصوِّرُ
دَجَّنَ الأرضَ والسبع السموات شادها	وأتقنها للعالمين لينظروا
وأبدع حسن الصنع في ملكوتها	وفي ملكوت الأرض كي يتفكروا
وَأَوْتَدَهَا بالرَّاسيات فلم تمد	وشقق أنهاراً بها تتَفَجَّرُ
وأخرجَ مرعاها وبثَّ دوابها[2]	وللكل يأتي منه رزق مقدَّرُ
من الحب ثم الأب والعشب الكلا	ونخل وأعناب فواكه مثمرُ
فاضحت بحسنِ الزهور تزهو رياضُها	وفي حلل نسيجِ الربيع تتبخترُ
وزانَ سماها بالمصابيح أصبحت	وأمست تباهي الحسن تزهو وتزهرُ
تراها إذا جنّ الدُّجا قد تقلَّدت	قلائد دريٍّ لدرٍّ تحقرُ
فيا ناظراً زهر البساتين دونها	أظنك أعمى ليس للحسن تبصرُ

(١) سورة الرحمن الآية ٢٩

(٢) الدرب: المضيق بين الجبل. لسان العرب لابن منظور مادة (درب).

[ما أنكره بعض الناس على حجة الإسلام أبي حامد الغزالي والرد عليهم][1]

قلت : وأما ما أنكره بعض النّاس على الإمام حجة الإسلام، رضي الله عنه، ونسبه إليه من الكفر، وزعمه أنه حصر القدرة في قوله رضي الله عنه : « ليس في الإمكان أبدع من هذا الوجود »، فقد أجبت عنه لما أرسل اليَّ بعض الفقهاء الطاعنين فيه يسأل عن الجواب في ذلك في معرض التعريض بالإنكار عليه، والإشعار بالكفر الذي نسبه اليه، فذكرت في الجواب ما يقتضي الإنكار على المنكر عليه.

وقلت : التكفير على المكفر له بما نسبه اليه، وها أنا أشير الى ما ذكرته بتقرير قدرته. وذلك أن كمال الصنعة يدلّ على كمال الصانع، والنقص على النقص. فيلزم على قول المنكر ان يكون صنعة هذا الوجود ناقصة بالنسبة الى صنعة أكمل منها، وذلك يستلزم نسبة النقص الى الصانع، ونسبة النقص الى الصانع تعالى هي عين الكفر.

---

(١) هو محمد بن محمد بن أحمد الطوسي أبو حامد الغزالي (٤٥٠ ــ ٥٠٥ هـ) لقب بالطوسي نسبة الى طوس التي ولد بها وهي ثاني مدينة في خراسان بعد نيسابور. منحه الله ذكاء خارقاً، وعقلية متفتحة، وعلماً نافعاً. كان ذكاؤه وعلمه سلاحاً مشهراً في وجه كل من يتعدى على الدين سواء من الفرق الضالة أو ممن كان من الملاحدة، والزنادقة الذين نازلهم بالحجة وقارعهم بالبرهان والادلة، فأظهره الله عليهم رافعاً لواء الدّين وداحضاً ألوية الشرك.

برع في كافة العلوم، وكان ذا باع في التصوف. وكتابه « إحياء علوم الدين » يشهد بعبقريته في علم الأخلاق. كما كان متميزاً بالجدل والمنطق والفقه.

درس في المدرسة النظامية عقب وفاة الإمام الجويني وكان له من العمر أربع وثلاثون سنة. فأمّه العلماء، وقصد اليه الأدباء والفقهاء، وحضر عنده ابن عقيل وأبو الخطاب، فأعجب الكل به، وجذبتهم فصاحته واطلاعه، وكمال خلقه وفضله، واستقصاء أدلته، وحضور بديهته، ولطيف إشاراته.

قضى حياته في التعليم والفتيا والتصنيف، وارتفع عن نقائص الدنيا، فرفض ما فيها من الوجاهة، وترك الفخر والعجب وراء ظهره.

اعتمد الشك وسيلة للخلاص. وقد حكى عن شكه هذا في كتابه « المنقذ من الضلال ».

وأقول أيضاً : الصنعة صادرة عن صفات الصانع ولا أكمل من صفاته تعالى، فلا أكمل من صنعته؛ إذ صفاته تعالى في نهاية الكمال والجلال، فصنعته في غاية الكمال والجمال.

وأقول أيضاً : هذا الوجود الدنيوي منه، والأخروي والعلوي والسفلي وما اشتمل عليه من أنواع الحكم البالغة الباهرة، والمحاسن الباطنة والظاهرة، أبدع كل بديع، ووجود أبدع من الأبدع محال. فوجود أبدع من هذا الوجود محال.

فان قال : [يلزم من هذا حصر القدرة] من كابر في النزاع. **قلت** : لا تعلق للقدرة بالمحال بالإجماع. فان لم ينزع عن النزاع وأصرّ على المكابرة زاعماً أن ذلك يؤدي إلى حصر القدرة. **قلت له** : ما تقول :هل يمكن في قدرة الله تعالى خَلْق أكمل من أكمل كل مخلوق ؟ فإن قال : لا، فقد قال : يعجز القادر على كل شيء جل وعلا، وان قال : نعم، قلت : فهل يمكن أن يخلق أكمل من اكمل مخلوق في جميع الأكوان والآفاق ؟ فان قال : نعم، فقد جعل أكمل من الأكمل وهو باطل بالاتفاق. وإن قال : لا، فقد حصر القدرة على قياسه، وكفر في ذلك نفسه بنفسه، وظهر بطلان ما ألزمه من التكفير بزعمه لحجة الإسلام، وانقلب عليه ما وجّهه إليه في ذلك الإلزام.

وهذا ما اقتصرت عليه من الجواب عنِ قول الإمام أبي حامد علم الاعلام. واللهُ سبحانه وتعالى الخبير العلاّم وكل مَنْ له بصيرة يعلم أن في هذا العالم الذي هو عالم الملك، وعالم الحكمة، وعالم الخلق، وعالم الشهادة، من الحكم التي هي من المحاسن الباطنة الفائقة على المحاسن الظاهرة، ما لا تهتدي العقول إلا إلى اليسير منه مما اشتملت عليه هذه الدار من خير وشر، ونَفْعٍ وضرّ، وصَفْوٍ وكدر، ومليح وقبيح، وسقيم وصحيح، وكريم وشحيح، وعالم وجاهل، ومجنون وعاقل، وناقص وكامل، وفقير وغني، وضعيف وقوي، وشريف ودني، وجماد

وحيوان، وإنس وجانّ، وملك وشيطان، وطيور وسباع، وبهائم، وسائر الأجناس، والأنواع مما ليس للعقل في حصره اتساع، مما اشتمل عليه الحيوان، والنبات، والأرض والسموات، وانقسام ذلك الى ذكور وإناث، وغير ذلك من الصفات، ومما اشتملت عليه العقاقير من الأدوية النافعة والحشرات من السموم الناقعة، وما في الجواهر من الخواص التي هي للمضرّات قامعة؛ وانقسام الخلق الى صامت وناطق، ومخالف وموافق، ومسهل وعائق، وأعمى وبصير، وطويل وقصير، ومظلم ومنير، وأصمّ وسامع، وجامد ومائع، وعاصٍ وطائع، وليِّن وخشن، وعَطِرٍ ومنتن، وبليد وفطن، وحزن وسرور، وتيقُّظ وغرور، وظل وحرور، واختلاف اللغات والألوان؛ واختصاص حسن الإنسان بالفصاحة والبيان، والنبوة والقرآن، والى خلق حلو وحامض، وواضح وغامض، وقابل ورافض، ومالح وعذب، ويابس ورطب، وخصب وجدب، وبارد وحارّ، ومتحرك وقارّ، وفخر وعار، وعافية وبلاء، ورخص وغلاء، وداء ودواء؛ وانقسام الخلق أيضاً إلى أخيار وأشرار، وأبرار وفجَّار، ومؤمنين وكفار، ومصيرهم إلى موت وحساب، وثواب وعقاب، ونعيم وعذاب، والجنة دار الفضل، والنار دار العدل على مقتضى القضاء السابق الذي هو الأصل بحكمة الحكيم العليم، الجواد الكريم، شديد العقاب، الغفور الرحيم، وغير ذلك ما لا يحصى مما اشتمل على بدائع الحكم المودعة في سائر أجزاء العالم المشتملة على المحاسن الباطنة المشاهدة بعين البصيرة، لا عين البصر التي هي بالنسبة اليها حقيرة، ومن ذلك محاسن الإنسان الباطنة أحسن واكثر.

قلت: ولعل المنكر المذكور يتوهَّم، أن حسن هذا العالم أن يكون كله مستحسناً بعين البصر بأن يكون جميعه ألواناً حسنة مختلفة، ونعيماً دائماً، وقلوباً مؤتلفة دائمة الصفاء والسرور، خلية عن كدر الأحزان والشرور، كاملة الراحة والزين، سالمة من التعتُّب والشين، خلية عن الصور القبيحة بعين البصر، وحقارة الحشرات، منزهة عن الهموم

والسموم، وسائر المضرَّات، جامعة لجميع الحظوظ المطلوبة التي يميل اليها الراغبون، وغير ذلك من صفات الجنة التي قال الله تعالى في مدحها وخطاب أهلها في كتابه المكنون : ﴿ **وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وانتم فيها خالدون** ﴾[1] ولم يهتد الى معرفة المحاسن الباطنة من لطافة المعاني وغرابة الحكم البالغة. ومن ذلك بعينه أن شين الدنيا سببٌ لزين الآخرة، وبغض الدنيا وتعبها وكدرها زيادة في كمال الجنة ونعيمها وسرورها، بل نار الآخرة وعذابها وهو أنها زيادة في نعيم الجنة، وعزها ومعرفة قدرها، وشرفها؛ وعلى الجملة لولا البلاء ما عرف قدر العافية، ولولا العذاب ما عرف قدر النعيم، ولولا النّار ما عرف قدر الجنة.

قلت : ولما وضعتُ هذا الكلام خطر لي إنشاء نظم أبيات لم يسبق اليها النظام، فما استتم هذا الكلام حتى جال بفكري أبيات في هذا المعنى المذكور، سبقني إليها الشيخ العارف بالله الفقيه الإمام **ابو سليمان داود الشاذلي** المشهور فأكتفيت بها لكونها وافية بهذا المعنى الذي أنا له قاصد، حيث قال رضي الله عنه في بعض القصائد :

أيا نفس للمعنى الأجـل تطلبي ... وكفي عن الدار التي قد تقضتِ
فكم أبعدت إلفا وكم كدرت صفا ... وكم جددت من ترحةٍ بعد فرحةِ
كذا وضعت كيما تعدِّي الى العلا ... فتكدريها من سرٍّ لطفٍ وحكمةِ
فلو جعلت صفواً شغلت بحبها ... ولم يك فرق بين دنيـا وجنَّـةِ
لعمرك ما الدنيا بدار أخي حجى ... فيلهو بها عنِ دار فـوزٍ وعـزَّةِ
عن الموطن الأسنا عن القرب اللقا ... عن العيش كلِّ العيش عند الأحبَّةِ
فوالله لولا ظلمة الذنب لم يطلب ... لك العيش يوماً دون ميٍّ وعَزَّةِ

قلت : وقد بعدنا في الخروج عن المقصود، وها نحن الى ما كنا بصدده من الاستدلال نعود.

---

(١) سورة الزخرف ــ الآية ٧١

قال الإمام حجة الإسلام أبو حامد ــ رضي الله عنه ــ بعد ما ذكر ما في عجائب خَلْقِ الله في الأرض، والسموات، وبدائع فطرة الحيوان والنبات، وغير ذلك، مما اشتمل عليه الصنع المتقن العجيب، والترتيب المحكم الغريب، فاذا في فطرة الانسان وشواهد القرآن ما يغني عن إقامة البرهان، ولكنا على سبيل الاستظهار والاقتداء بالعلماء النظار نقول : من بديهة العقول أن الحادث لا يستغني في حدوثه عن سببٍ يحدثه، والعالم حادث، فاذاً لا يستغني في حدوثه عن سببٍ. ثم تكلم في ذلك السبب لما يطول ذكره من المباحث العقلية مما سيأتي ذكره، إن شاء الله تعالى، في الأصل الرابع من شرح البيت الأول من قصيدتي المنظومة في عقيدة أهل السنة.

[العالم لا يخلو من حوادث]

ثم قال في آخر ذلك : فيحصل أن العالم لا يخلو عن الحوادث، فهو إذاً حادث، واذا ثبت حدوثه كان افتقاره الى المحدث من المدركات بالضرورة.

وقال غيره من أئمتنا ايضاً في البرهان على وجود واجب الوجود سبحانه وتعالى : لا شك في وجود حادث. وكل حادث ممكن، وإلا لم يكن موجوداً تارة ومعدوماً أخرى، وكل ممكن فله سبب، وذلك لا بدَّ وأن يكون واجباً، أو منتهياً إليه لاستحالة الدور والتسلسل.

وقلت : وأخصر من هذا أن نقول العالم متغيِّر وكل متغيِّر حادث، فالعالم حادث، وكل حادث لا بدَّ له من مُحْدَث، وإلا لزم إيجاد الشيء نفسه أو الدور والتسلسل والكل محال. وتقرير ذلك يأتي إن شاء الله في شرح البيت الأول.

وأما قول المعتزلة إن المعرفة واجبة بالعقل فممنوع لوجوه أَقتصر منها هنا على ذكر ثلاثة :

الأوّل : أن ذلك بناء منهم على ثبوت الحكم بالتحسين والتقبيح العقليين، وهو باطل، كما سيأتي مستدلاً على بطلانه بثلاثة عشر دليلاً ما بين عقلي ونقلي.

الثاني : ان في قوله تعالى : ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً** ﴾[1] نفياً للوجوب قبل الشرع، لنفي لازمه وهو العذاب.

الثالث : أن وجوب معرفة الله تعالى وطاعته، لو كان بالعقل لم يَخْلُ؛ إمّا أن يكون لغير فائدة وغرض وهو محال في العقل، لأنه عبث، أو لفائدة وغرض للمعبود وهو محال أيضاً لتقدُّسه عن الأغراض والفوائد، أو للعبد وهو محال أيضاً؛ لأن الحال ليس فيه إلا الكدُّ والتعب بفعل الطاعات، وترك الشهوات والمآل، لا يستقل العقل بالاهتداء اى معرفة ما فيه من الثواب والعقاب فدلَّ على أن لا موجب إلا الشرع.

إذا علم هذا فاعلم أنه يلزم من معرفة الله تعالى معرفة كونه واحداً لا شريك له؛ لاستحالة وجود وشريك له تعالى عقلاً وشرعاً. أما الشرع فقوله تعالى : ﴿ **قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا الى ذي العرش سبيلاً** ﴾[2] وقوله سبحانه : ﴿ **لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا** ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ **وما كان معه من إله إذاً لذهب كلُّ إله بما خَلَقَ وَلَعَلاَ بعضُهم على بعضٍ** ﴾[4].

[معرفة العقل]

وأما العقل فلأنه لا يعرف الله سبحانه إلا بصفات الكمال المطلق،

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٥
(٢) سورة الاسراء الآية ٤٢
(٣) سورة الأنبياء الآية ٢٢
(٤) سورة المؤمنون الآية ٩١

وإلا لكان ناقصاً، والنقص محال عليه تعالى، ومن جملة الكمال كونه واحداً متوحداً بالملك، منفرداً بتدبير المملكة غير مشارك في الخلقة والأمر لأن الشركة يلزم منها المحال أو النقص المؤدّي اليه، لأنّا إذا فرضنا إلٰهَيْن وفرضنا إرادة أحدهما شيئاً وإرادة الآخر نقيضه، كإيجادِ شيءٍ وعدم إيجاده او تحريكه وتسكينه، فإمّا أن يحصل مرادهما فيجتمع النقيضان، أو لا يحصل مراد واحدٍ منهما فيرتفعان، والكل محال، أو يحصل مراد أحدهما دون الآخر فيلزم عجز مَنْ لم يحصل مراده فلا يكون إلهاً لنقصه، فلزم أن لا يكون الإله إلا واحداً...

فإن قيل يريدان الأصلح. **قلنا** : هذا مبنيّ على القول بالتحسين والتقبيح العقليّ، وهو باطل كما سيأتي.

قلت : وناهيك ببطلان مذهب يلزم منه على هذا وجود إلٰهَيْن، وهذا غاية البطلان والفساد والضلال، فعلم من هذا التقرير أن معرفة انتقاء الشركة في الإلهية مترتّبة على معرفة الإله سبحانه.

[العلم والمعرفة والفروق بينهما]

قلت : وهذه المعرفة المذكورة هي المعرفة العامة المشتركة التي هي العلم في لسان علماء الظاهر، إذْ عندهم كل علم للخلق معرفة، وكل معرفة علم، وكل عالم منهم عارف، وكل عارف عالم على ما قاله بعض العلماء.

وفرَّق بعضهم بينهما، فان العلم لا يستدعي سبق جَهْلٍ بخلاف المعرفة. ولهذا لا يقال الله تعالى عارف، ويقال عالم، وبأن العلم بنسبة شيء الى آخر. لهذا يتعدى « علمت » إلى مفعولين، بخلاف « عرفت » فانها وضعت لمفردات. وليست المعرفة المخصوصة المختص بها الخواص أرباب المشاهدة. فإنها عندهم أوصاف عزيزة في عبد اصطفاه الحق سبحانه.

وتكلموا فيهما بما ذِكْرُهُ يطول ويخرجنا عما نحن له قاصدون. وها أنا **أقتصر هنا على ذكر قول ثلاثة منهم**:

١ ــ قال الشيخ الكبير العارف بالله **أبو العباس الصياد اليمني**، رضي الله عنه: المعرفة وجود تعظيم في القلب يمنع الشخص عن الانقياد لغير معروفه.

٢ ــ وقال بعضهم: المعرفة اطلاع العبد على الأسرار بمواصلة الأنوار.

٣ ــ وقال بعضهم: المعرفة إيصال بصائر التعريف، يقين العلم، دوام المناجاة مع الله بالقلب، وحصل من الله التعريف على دوام الأوقات باختلاف الحالات. فعند ذلك تظهر أنوار المعرفة، فاذا تجرد العلم، واتضحت البراهين، وانتفت الشكوك بالكلية، وحصل ثلج الفؤاد وبرد اليقين، لا يسعى العبد إلى هذه الطريقة عارفاً حتى يحصل بينه وبين الله تعالى أحوال زائدة على العلم من فنون الكشوفات وصنوف التعريفات وبتحديث الحق مع العبد من غير سماع نطق بالجهر، والعارف تبدو في قلبه في ابتداء التعريف لوائح ثم لوامع، ثم كشوفات وبصائر أنوار وطوالع، فالعارف كأنه يخاطبه الحق سبحانه بكل شيء ويلقي إليه كل خطاب ويعوده في كل وقت بنوع تعريف ومكاشفة، وفي كل حال بسرّ.

[صفة العارف]

ثم من صفة العارف أنه لا يخلو من أحوال معلومات، منها المحبة، ومنها التعظيم والهيبة، ومنها الأنس والقربة، ومنها الحياء والغيبة. وإذا تحقق العبد في ابتداء طلبته بدوام المراقبة، ووصل الى المشاهدة والمراقبة علمه بأن الله سبحانه يراه ويعلمه على دوام الأوقات. ثم أنوار المشاهدة

تلوح في القلب، والمشاهدة غلبة نور الحق على القلب، وانتفاء احساسك بك وذكرك لك وضميرك عنك، فتكون مختطفاً عن جملتك باستيلائه عليك. فكل ما زاد شهودك زادت اجنبيتك عنك، وعن الكون بالجملة، واذا طلعت شموس العرفان، استهلك في ضيائها نجوم العلوم كما قيل :

وَلَما اسْتَنَارَ الصُّبحُ أدرَجَ ضَوءَهُ   باسْفَارِهِ أَنْوَارَ ضَوءِ الكَوَاكِبِ

[شبهات المعتزلة والرد عليها]

واما ما ذكرت أيها السائل من شبه المعتزلة الثلاث التي ذكرتها في الأوجه الثلاثة في الاعتراض على قولنا إن المعرفة تجب بالسمع الموجب دون العقل عندنا للنظر الذي هو طريقه الى معرفتها عندنا وعندكم اجماعاً :

فالشبهة الأولى : وهو قولك : أحدها أن السمع مفتقر إلى معرفة الله تعالى، ومعرفة الله تعالى مفتقرة الى السمع وهذا دور محض لأنّا لا نعرف السمع حتى نعرف الله تعالى، ولا نعرف الله تعالى حتى نعرف السمع، فلا يحصلان ولا واحد منهما. هي عين ما حكاه أصحابنا عن المعتزلة من قولهم : ان الوجوب لو كان من الشرع لزم إفحام الأنبياء عليهم السلام، فان المكلف لا ينظر ما لم يعلم الوجوب ولا يعلمه ما لم ينظر.

قلت : وقد ألزم أصحابنا مذهبهم الإفحام أيضاً فقالوا في جوابهم : ولو وجب عقلاً لأفحم أيضاً لأن وجوب النظر غير ضروري، إذ هو متوقف على مقدمات مفتقرة الى أنظار دقيقة.

قلت : لأن المكلف على هذا القول : لا أنظر حتى أعرف وجوب النظر، ولا أعرف وجوب النظر حتى أنظر. فيلزم في هذا من الدور

في طريق المعرفة على مذهبهم، على ما ذكره السائل من الدور في طريقها على مذهبنا.

قلت : هكذا صرح غير واحد من أئمتنا المحققين.

وقال بعضهم : العقل لا يفحم، بل هور دور؛ لأنه يصدق عليه قولنا : لو وجب عقلاً لما وجب نقلاً. فعبر عن هذا بالإفحام. انتهى.

قلت : ولزوم الدور كافٍ فيما رُمنا من منع الوجوب عقلاً واذا لزم الأمر مذهبهم من الدور ما لزم مذهبنا فما أجابوا به عن ذلك به أجبنا وما لهم عن ذلك جواب ولا مخرج عن اللازم المذكور وها نحن على سبيل التبرع نجيب عن ذلك، ونخرج عن المحذور وفي هذا المعنى انشد وأقول :

اذَا مَا فِي الوَغَى أَوْرَدَتُمُونَا فإِنَنَا سَنُورِدكُم مِنْهَا الَّذي مِنْهُ يَحْذَرُ
اذَا ضَمَّنَا يَوماً مِنَ الدَّهرِ مَعْرَكٌ صُدرنَا وَأَنْتُم مَا لَكُم عَنْهُ مَصدَرُ

[الجواب عن هذه الشبهة]

فأقول، وبالله التوفيق : الجواب عن الشبهة المذكورة هو ما أشار إليه الإمام حجة الإسلام أبو حامد رضي الله عنه، في قول الذي ذكره السائل في هذا السؤال، وذكر أنهم لم يفهموه، وأنهم سألوا أعلم أهل زمانهم عن معناه، فقال : ما فهمنا غرضه في هذا الكلام مع أنه الناقل لكلامه ومعترف بفضله.

وذكر السائل انه ضجّع به في الرد على المعتزلة [هكذا قال ضجّع بتشديد الجيم بعد الضاد المعجمة]. وفسّر ذلك بأنه تكلّم بكلامٍ لا يُفهم، وهذا التفسير الذي ذكره لا يشهد له من جهة اللغة وَضْعٌ، ولا من جهة الاصطلاح سَمْعٌ. ولكن لهذه اللفظة معنى صحيح وإن لم يذهب فهمه إليه وهي كلمة حق جرت على لسانه ليست له بل

عليه أي أقعدهم بالردّ عليهم وصيّرهم مضطجعين غير قائمين بحجة وأنّى تقوم حجة للمبتدعين.

قال أبو حامد المذكور : الطبع قابل، والعقل باعث، والمعجز ممكن، والرسول مبلغ.

قلت : وها أنا أُنبّه على معنى هذا الكلام بعبارة واضحة للأفهام أجمع فيها بين تفهيمهم ما لم يفهموه من المعنى ودفع الإلزام الذي ألزموه لنا.

اعلم أن كلامه هذا، رضي الله عنه، في غاية الحسن والمناسبة لما نحن بصدده من مسألة المعرفة اللازم فيها الإفحام للزوم الدور المذكور. وذلك أنه، رضي الله عنه، مثل **المكلف** القائل للرسول المستدعي النظر في المعجز المتحدَّى به، الشاهد بصدق رسالته المشتملة على معرفة الله تعالى، ومعرفة شرعه الذي يدعو به عباده : لا يلزمني النظر في معجزك حتى أعلم صدقك، ولا اعلم صدقك حتى أنظر في معجزك بمن قال له منذر ناصح مشفق تحذيراً له : وراءك أفعى فاحذر منها أن تلدغك، أو سبع ضار فاحذر منه أن يفترسك. وإن التفتّ وراءك ونظرت عرفت صدقي. فقال : لا أَلْتَفِتُ ورائي وانظر ما لم يثبت صدقك، ولا يثبت صدقك ما لم التفت وانظر. فهل قائل هذا القول إلا أحمق حيث عرض نفسه للهلاك وعظيم الخطر بتَرْكِ نظرٍ ليس عليه فيه كلفة، ولا ضرر ؟ ولو كان له عقل لبعثه على النظر في ذلك، وقال في نفسه : يمكن أن يكون هذا المنذر صادقاً؛ فان قبلت نصحه ونظرت فيما قال وأنذر وحذر، واحترزت من العدو الذي ذكر نجوت، وإن لم أقبل نصحه وتقاعدت عن الاحتراز فلم أنظر نزل بي الهلاك من حيث لا أشعر، وان كان كاذباً فما يضرني النظر والاحتراز في أمر ممكن هو عليَّ غائب ولا يورثني ذلك شيناً بل زيناً، إذ الاحتراز والنظر في الأمور وما تؤول اليه من العواقب من

شيمة العقلاء أُولي الحزم والعزم والحذر من الغدر والوقوع في المعاطب. وقد قال في ذم التغرير القائل الخبير: «وما المغررُ محمودٌ وإنْ سَلُمَ».

قلت: وأما قولي في بعض القصائد:

فَمَا فَازَ بالمجدِ الأثيلِ مِن الورَى ... سِوىٰ مَنْ لَدَى الأهوالِ بِالْنَفْسِ يسمحُ
فَامَا جَبانٌ عَـزَّتِ النَّـفسُ عِنْـدَهُ ... فَذاكَ الَّذي بِالذُّلِّ يُمْسِي وَيُصْبِـحُ

وقولي في أخرى:

فمجدُ العُلا مَا نَالَهُ غَيرُ مَاجدٍ ... يُخَاطِرُ بالروحِ الخَطيرِ فَيَظْفَـرُ

فان هذا تغرير بالنفوس في طاعة الملك القدوس، وفيها النجاة وسعادة الأبد، والفوز العظيم بالنعيم المخلد. وليس ذلك التغرير كذلك بل موقع في الهلاك.

قلت: فاذا فهم هذا المثل المذكور فليفهم ما نحن بصدده من كون العاقل يحترز من هذا المحذور لاحتمال صدق المخبر والوقوع في الهلاك والثبور، فكذلك يقول الرسول ﷺ:

«وراءكم الموت وما بعده من الأهوال والشدائد والعقاب والوبال والعذاب الشديد الأليم وخلود الدهر في دار الجحيم؛ إن لم تأخذوا حذركم وتحترزوا مما أنذرتكم وتعرفون صدقي بالالتفات الى معجزتي فمن التفت إليها عرف صدقي واحترز ونجا، ومن لم يلتفت اليها لم يعرف صدقي ولم يحترز من المحذور حتى ينزل به الهلاك والردى».

قلت: فقد علم من هذا التمثيل والإيضاح أنه لا يترك الاحتراز بالنظر في المعجز بسبب الدور من فيه فلاح فان الذي تحدّى به الرسول يمكن ان يكون معجزاً دالاً على صدقه فيما اخبرته، أعني ممكناً في نفس الأمر قبل أن ينظر فيه فير مقطوع بصدقه ولا كذبه. فينبغي أن ينظر فيه لاحتمال الصدق المذكور خوفاً من الوقوع بترك النظر في المحذور ــ فاذا نظر فيه حصل له العلم بكونه معجزاً خارقاً

للعادة شاهداً بصدقه، فبادر الى التصديق ونَيْل السعادة ــ فهذا معنى قَوْل الإمام حجة الإسلام المحقق المتقي : والمعجز ممكن.

[من مهام الرسول ﷺ]

واما قوله : والرسول مبلغ، فمعناه : ما عليه إلا البلاغ وليس عليه أن يلزم المرسل اليهم الإيمان بما أرسل به. وقد قال الله تعالى : ﴿ **وما على الرسول الا البلاغ المبين** ﴾[١]، وقال سبحانه : ﴿ **وما انت عليهم بوكيل** ﴾[٢] وقال عز وجل : ﴿ **انما انت نذير** ﴾[٣] وغير ذلك مما يطول ذكره من قوله تعالى في محكم الآيات الكريمات في هذا المعنى. وقد ضرب ﷺ في الحديث الصحيح مثلاً لمن صدقه فنجا ومن كذبه فهلك وتردى.

فقال ﷺ : « مثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال : إني رأيت الجن بعيني وأنا النذير العريان، فالنجاء. فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا. وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ــ فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق ــ أخرجاه في الصحيحين[٤].

---

(١) سورة المائدة الآية ٩٩

(٢) سورة الانعام الآية ١٠٧؛ والزمر ٤١

(٣) سورة هود الآية ١٢

(٤) رواه الإمام مسلم في صحيحه ١٧٨٩/٤ ــ ٤٣، كتاب الفضائل باب ٦، رقم الحديث ١٦ ــ ٢٢٨٣

قوله ﷺ : « أنا النذير العريان »، قال العلماء : أصله أن الرجل إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخافة نزع ثوبه وأشار إليهم إذا كان بعيداً منهم ليخبرهم بما دهمهم. وأكثر ما يفعل هذا ربيئة القوم، وهو طليعتهم ورقيبهم. وقوله « فالنجاء » أي انجو النجاء، أو أطلبوا النجاء. فأدلجوا : ساروا من أول الليل. اجتاحهم : استأصلهم.

قلت : ولا ضرر على النذير إذا لم يقبل المنذر التحذير، بل الضرر على مَنْ لم يقبل النصح والإنذار، حتى نزل به الدمار. نسأل الله الكريم العفو والعافية والتوفيق وحسن الخاتمة لنا ولأحبابنا والمسلمين، آمين.

فهذا معنى ما أشار اليه في قوله : والرسول مبلغ.

[العقل باعث]

وأما قوله : والعقل باعث، فلأنه هو الذي يفهم كلام المنذر المشتمل على الإعلام بنزول الهلاك إن لم يصدق ويقبل ويبعث صاحبه على الاحتراز مما حذر منه، ويحكم بإمكان وقوع ذلك في المستقبل.

[ذكر العقل في القرآن في معرض المدح]

قلت : وقد ذكر الله تعالى العقل في القرآن في معرض المدح لأهله في مواضع يطول عدُّها وهو جدير بالمدح الكامل، إذ به عرف الحق سبحانه. ومعرفته تعالى اكمل الفضائل، وبه أيضاً مناط التكليف وزجر النفس عن الهوى الموقع لها في شقاوة الأبد، وحلول دار الجحيم والجذب لها الى الخوف المفضي بها الى سعادة الأبد، والفلاح المخلد لها في دار النعيم حيث يقول الله العظيم : ﴿ **فاما مَنْ طَغَى وآثَرَ الحيَاةَ الدُّنيا فإن الجحيمَ هي المأوى وأما مَنْ خَافَ مقام ربِّه وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى فإنَّ الجنةَ هي المأوى** ﴾[1]. وحيث يقول العلي الكبير : ﴿ **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴾[2].

---

(١) سورة النازعات الآية ٣٨

(٢) سورة الملك الآية ١٠

قلت : ومما يدلّ أيضاً على أن العقل سبب النجاة من المحذور أنه لا يفكر في عواقب الأمور، ويخاف من تقلب الدهور، إلا عاقل حذور، بالهموم مغمور، وأما غير العاقل، فهو سالٍ ساهٍ لاهٍ غافلٌ ــ ولهذا قال القائل :

اذَا قلَّ عَقْـلُ المَـرءِ قَـلَّتْ هُمُومُـهُ ... وَمَنْ لَم يَكُنْ ذَا مُقْلَةٍ كَيفَ يَرْمَدُ

وفي مدح العقل أيضاً أحسن القائل : « وصدقُ عدوٌّ عاقل خيرٌ من صديق أحمق » **قلت** : وهذا معنى ما أشار اليه في قوله : « والعقل باعث ».

[الطبع قابل]

وأما قوله : والطبع قابل (فهو بالباء الموحدة قبل اللام ويصح أن يقال بالتاء المثناة من فوق) ومعناه ظاهر لما قد علم في النفس من الطباع الردية المشتملة على الأوصاف الذميمة المحتاجة في إزالتها إلى الرياضات والمجاهدات الشديدة، حتى تتبدَّل بتوفيق الله سبحانه بالصفات الحميدة. وإلا فلا تزال بصاحبها الى الأهواء مائلة، حتى تمسي وهي له قاتلة.

واما على الوجه الأول ــ أي بالباء الموحدة وهو الظاهر الذي هو له قاصد حجة الإسلام أبو حامد ــ فمعناه أنه إذا فهم العقل الإنذار وجوز إمكان وقوع الأخطار، فإن الطبع يقبل النصح ويستشعر الخوف، فيستحث على الحذر من الوقوع في الضرر، ثم الضرر الأعظم موجود في الجهل بالله تعالى ومخالفة حكمه المعظم في ترك الواجبات وارتكاب المنهيات. ومعرفة ذلك كلّه مستفاد من الشرع المعروف بالمشرع، المدعي الرسالة الشاهدة على صدق دعواه معجزته المحتملة قبل النظر فيها للصدق المفضي ترك النظر فيه الى الضرر، المستحثّ الطبع على

الحذر، الداعي الى النظر، المؤدّي الى معرفة صدق المشرع المستلزم التصديق به، المفضي الى السلامة من المحذور وسعادة الأبد ودوام السرور في جوار المولى الكريم الغفور. فهذا معنى ما أشار اليه الإمام حجة الإسلام الفاضل — رضي الله عنه — في قوله : « والطبع قابل » وفي كون الطبع قابلاً للخير، وتبديل الصفات الذميمات بالصفات الحميدات. قلت هذه الأبيات:

تعوّد فعالَ الخير مع كل فاعلٍ بتبديلِ طبعٍ للتبدلِ قابلِ
فنفسُ الفتى إن راضها مهرت بها نجاة وعزّ واكتساب فضائلِ
وإن لم يرضها كلب مزبلة بها هلاك وذل واكتساب رذائلِ

قلت : وإذا كان الطبع غير قابل (بالموحدة)، فلا شك أنه قاتل (بالمثناة من فوق) كما ذكرت فيما تقدم، والله أعلم.

فهذا ما اقتصرت عليه من التنبيه على المقاصد المشتملة عليها الأربع الكلمات المذكورات في قول الإمام أبي حامد، رضي الله عنه، التي ذكر السائل أنه لم يفهمها عالم زمانهم الفاضل.

[بسط الكلام في معاني كلمات أبي حامد يستدعي تصنيف كتاب كامل]

ولعمري إن بَسْط الكلامِ فيها يستدعي تصنيف كتاب كامل. وفيما ذكرنا من ذلك كفاية عن التوغّلِ في ميدانٍ بعيدِ الغاية. وَلْنَعُدْ على الفور الى ما كنا بصدده من ذكر الدور.

قال بعض أئمتنا : ليس في هذه المسألة دور، لأن معجزات الأنبياء عليهم السلام تبهر عقول الأنام. فمَنْ رآها وسمع بها ولم يجب اليها ولا نظر فيها، فهو مقصِّر؛ لأنَّ ظهورها موجب للنظر، والشرع ثابت بظهورها، وإن لم يثبت عنده، والوجوب متوقف على ثبوت الشرع

بالمعجزات لا على العلم بثبوته. فكم من واجب يتوجه على المكلف وهو غير عالم به. انتهى معنى كلامه مختصراً.

قلت : وهذا نحو مما أشار اليه إمام الحرمين رضي الله عنه في هذه المسألة حيث قال : « شرط الوجوب عندنا ثبوت السمع الدال عليه مع تمكُّن المكلَّف من الوصول اليه ». وقال أيضاً مخاطباً للخصوم : « هذا الذي ألزمتمونا في المنقول ينعكس عليكم في قضايات العقول، فإن الموصل الى العلم يوجب النظر في مجاري العبر عندكم أن العاقل يخطر بباله تجويز مانع يطلب منه معرفته وشكره على نعمه. ولو عرفه وشكره لنجا ورجا الثواب، ولو كفر واستكبر لتصدى لاستحقاق العقاب. فاذا تقابل عنده الجائزان، وتعارض لديه الاحتمالان، فالعاقل يقضي باختيار ما يتوقع فيه النعيم المقيم، واجتناب ما يخشى فيه العذاب الأليم. فكذلك المعجزة، إذا ظهرت وتمكَّن العاقل من دَرْكها، كانت بمثابة جريان الخاطرين على زعم الخصم؛ فإذا جريا فإمكان النظر في اختيار أحدهما كإمكان النظر في المعجزة عند ظهورها. قال : « ويلزم الخصوم في مدارك العقول، عند الغفلة والذهول، ما ألزمونا في مقتضى المنقول. فإن مَنْ ذهل عن هذه الخَواطر، وغفل عن هذه الضمائر، لا يكون عالماً بوجوب النظر ». هذا ما اختصرته من كلامه غير ملتزم للفظه بل معنى مرامه، مع تقديم وتأخير مخالف لسلك نظامه.

[طريق الهدى في اتباع السنة]

قلت : وبعد هذا كله فاعلم أيها السائل أن مَنْ شرح الله صدره إلى الإسلام، وحبَّب اليه الإيمان، ووفَّقه لسلك طريق الهدى وتَرْك الردى، لا يسلك في طَلَبِ معرفة الله عز وجل طريق أهل المراء والجدال، حتى يقول : لا أنظر في المعجزة أو في الأدلّة السمعية حتى أعلم صدق صاحبها، ولا أعلم صدقه حتى أنظر فيها، ونحو ذلك من مدافعة

الحق ودعاة مَنْ ليس بموفق واصطلاح مَنْ ليس فيه صلاح، ولا لاح عليه فلاح، بل يبادر الى النظر فيها لاحتمال صدقها المترتب على التصديق به السعادة الكبرى، وعلى التكذيب به الشقاوة العظمى؛ فاذا علم صدقها سارع الى التصديق بها والعلم النافع والعمل، ولم يشتغل بعلم المغالطات والتشدق بالجدل كاشتغال الخالين عن الخوف والوجل الناسين لذكر الله عز وجل.

[تعقيب]

فهذا كافٍ في دَفْع ما ذكرت من الشبهة الأولى في الوجه الأول وشافٍ فيما طلبت من فتق صميمها، وقشر أديمها لمستبصر في طريق الهداية، موفق بتأييد العناية، لم تروَّ عروقه من منهل البدعة والغواية. فان تروَّت من لك المنهل الوخم فاغسل يدك من صحة شاربه السقيم ووصوله الى منهل السنة العذب ذي النعيم وأنشِدْ على رؤوس الملا متمثلاً :

فبدونك يا ماءَ العُذَيْبِ تعرضت مياه رخيمات عن الوصل صُدَّت

[الشبهة الثانية]

اما ما ذكرت من **الشبهة الثانية** في الوجه الثاني بقولك : إنما يصح الاستدلال بكلام الله تعالى مهما كان عدلاً حكيماً لا يفعل القبيح ولا يريده، فاما مع تجويزكم القبيح عليه وإرادته بكل الكائنات من وجوه الفساد من كفر وظلم وسواه فما الثقة بكلامه الى آخره... فاعلم، وما اظنك تعلم لما خالطك من الوخم فأعمى واصم، أنه تعالى لا يُنسب اليه قبح ولا ظلم لا يتصوران منه بدليل العقل والنقل.

[الأدلة العقلية على عدم نسب القبح إلى الله]

أما العقل، فها أنا أقدم طرفاً منه كالتوطئة والتمهيد، ثم اذكر بعد النقل منه طرفاً ردًّا له وردفاً. فاقول وبالله التوفيق : أما دلالة العقل على ذلك فلأن الظالم هو المتصرف في ملك غيره. هذا قول جميع أئمة الهدى والإتباع، وعليه انعقد الإجماع قبل ظهور الابتداع.

قلت : أو في ملكه على وجه مخالف لحكم حاكم عليه يلزمه طاعته، وليس الله تعالى متصرفاً في ملك غيره، ولا مخالفاً لحكم مَنْ يلزمه طاعته؛ اذ لا مالك سواه ينسب الملك اليه، ولا حاكم غيره يحكم عليه، بل هو المالك للعبيد، والحاكم بما يريد. له الخلق، والأمر، والعزة، والقهر، والعظمة، والكبرياءء والقدرة، والعلاء، والعلم، والحكمة، والسلطان، والسطوة، لا يجري في ملكه إلا ما يشاء، ولا يوجد إلا ما سبق به القضاء؛ يعطي ويمنع، ويضر وينفع، ويخفض ويرفع، ويجلب ويدفع، ويفرق ويجمع؛ كل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل؛ لا يُسْأل عما يفعل وهم يُسْألون ــ والقبح والحسن يطلقان على معانٍ مختلفة : منها أن يوصف الشيء الملائم للطبع بالحسن، وغير الملائم بالقبح؛ ومنها أن يوصف الشيء الكامل بالحسن والناقص بالقبح. فهذان المعنيان عقليان بلا خلاف. ولكن ليس المراد هنا، وإنما المراد ما يتعلق به في الأجل ثواب أو عقاب. فهذا الحكم فيه للشرع دون العقل لوجوه :

الأول : ما تقدم من قوله تعالى : ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً**﴾[1].

الثاني : أن العقل لا مجال له في الاهتداء الى معرفة الآخرة وما فيها من الثواب والعقاب.

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٥.

الثالث : أن الفعل القبيح، كالكذب مثلاً، قد يزول قبحه ويحسن عند اشتماله على مصلحة راجحة على مفسدته، والأحكام البديهية ككون الكل أعظم من جزئه لا تزول بسببٍ أصلاً. فقول المعتزلة إن بديهة العقل تحكم بالتحسين والتقبيح ليس بصحيح.

الرابع : ان أفعال الخلق قد دلّ الدليل على وقوعها بقدرة الله تعالى وإرادته، وأن المخلوق غير مستبد بالاختراع. قال ائمتنا، رضي الله عنهم، ومنهم الإمام حجة الاسلام أبو حامد الغزالي، وهذا لفظه : « وكيف يكون الحيوان مستبداً بالاختراع ويصدر من العنكبوت والنحل وسائر الحيوانات من لطائف الصناعات ما تتحير فيه عقول ذوي الألباب ؟ فكيف انفردت هي باختراعها دون ربِّ الأرباب، وهي غير عالمة بتفعيل ما يصدر منها من الأكساب ؟ هيهات هيهات ذلّت المخلوقات، وتفرد بالملك والملكوت جبار السموات.

قلت : وإلى صدور ذلك عن اختراع الإله الواحد، أشرت بقولي في بعض القصائد في توحيد الرب الماجد، منتقلاً من ذكر الغزل إلى وصف الله عز وجل :

خَليليَّ مَا نُعمى ونُعمانَ والحمىٰ ... وليلىٰ وما ذكري لِلُبنى ولبنانِ

دَعَاهَا فَمقصُودي سِواهَا وإنَّما ... أكني بِها عَنْ عالِي الوصفِ والشَّانِ

إلهٌ تعالى عَنْ ثَنَا وَصفِ واصفٍ ... مَجيدٍ وذي جودٍ رحيم ورحمانِ

تقدس في أسمائه وصفاته ... وفي ذاته عن كلِّ عيبٍ ونقصانِ

عليمٌ بكلِّ الكائناتِ وخالقٌ ... لها باختراعٍ منه من غير أعوانِ

فكن كون الأكوان من غير حاجةٍ ... إلى فعل آلات وقولٍ وأزمانِ

إله الحمد حقًّا وحدَهُ دون غيرهِ ... على ذاك قد دلّت قواطعُ برهانِ

ويكفي دليلاً قولُنا الحمد والثنا ... لوصفَيْن محمودَيْن حُسْنٍ وإحسانِ

وليس كلا الوصفَيْن إلا لصانعٍ ... حكيمٍ جواد واحد ما له ثانِ

فكلُّ جميلٍ أو جمالٍ فجودُهُ ... وصنعتُهُ عن حكمةٍ ذاتِ إتْقَانِ

وذلك كلُّ الكائنات جمادِها ومائِعها مع كلِّ نامٍ وحيوانِ
فلا عَرَضٌ أو جَوْهر غيرُ خلقِهِ ولا جسمٌ إلا خَلْقُ خلاقِ أكوانِ
فما النحلُ ثم العنكبوتُ لتهتدي الى صنعةٍ من غير إلهامِ رحمانِ
ولا فطنةٌ في صنعةٍ ثم حكمةٌ وعلمٌ أتت إلاَّ بتَعْليمِ منَّانِ
ولا قدرةٌ عند الوَرَى أو إرادةٌ سوى خَلْقِ سلطانٍ علا كلَّ سلطانِ
فحاشَاهُ مِن وِجدان ما لا يريدُهُ على مُلْكه يعلو إذاً ملكُ شيطانِ
وأفعالُه فضلٌ وعدلٌ تصرفاً بملكٍ يراه ليس بالظَّالمِ الجاني
وليس بذا قُبْحٌ كما ظَنَّ جاهلٌ نحا باعتزالٍ نحو مذهب خذلانِ
ولكنَّ فيه حكمةً أيَّ حكمةٍ فلا نقمةٌ إلاَّ بها سرُّ دَيَّانِ
ولا نعمةٌ إلا ومِن عنده أتَتْ إليك وإن جاءَتْكَ من عند إنسانِ
فيا ربُّ وَفِّقْنَا لشُكْرٍ لَنَا بِهِ مزيدٌ من النعماءِ في نصِّ قرآنِ
واكمِلْ لنا ديناً إليك مقرباً بتحقيقِ إيمانٍ وإيقانِ عرفانِ
وصلِّ على زَيْنِ الوجودِ محمدٍ إمامِ الورى ما غرَّدَتْ ورقُ أغصانِ

قلت : وسيأتي ذكر مباحث عقلية أيضاً بعد الأدِلَّة النقلية إن شاء الله تعالى. أعني ما وعدت به أن يكون ردفاً ... هو الوعد ينبغي فيه الوفاء.

[الأدلة النقلية على اجماع الأمة بأن أفعال العباد واقعة بقدرة الله تعالى وارادته]

[الأدلة من القرآن الكريم]

فأما النقل فنصوص الكتاب والسنة ناطقة مع إجماع الأمة قبل ظهور البدعة أن أفعال العباد واقعة بقدرة الله تعالى وإرادته، والاستشهاد من ذلك بالقليل يخرجنا الى حيز التطويل. فَلْيُقْتَصَرْ من ذلك على ما يحصل به الكفاية في الإرشاد الى الإيمان به، والله ولي الهداية.

١ ــ فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ الله خالق كل شيء ﴾

٢ ــ وقوله سبحانه : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾[٢]

٣ ــ وقوله تعالى : ﴿ ألا لَهُ الخلق والأمر ﴾[٣]

٤ ــ وقوله سبحانه : ﴿ الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[٤]

٥ ــ وقوله تعالى : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾[٥]

٦ ــ وقوله سبحانه: ﴿ من يَشَأْ الله يضلله ومن يَشَأْ يجعله على صراط مستقيم ﴾[٦].

٧ ــ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ اولئك الذين لم يرد الله ان يطهر قلوبهم ﴾[٧]

٨ ــ وقوله جل جلاله : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة ﴾[٨]

٩ ــ وقوله سبحانه : ﴿ وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه ﴾[٩]

---

(١) سورة الرعد الآية ١٦
(٢) سورة الصافات الآية ٩٦
(٣) سورة الاعراف الآية ٥٤
(٤) سورة الملك الآية ١٤
(٥) سورة القمر الآية ٤٩
(٦) سورة الأنعام الآية ٣٩
(٧) سورة المائدة الآية ٤١
(٨) سورة البقرة الآية ٧
(٩) سورة الأنعام الآية ٢٥

١٠ ــ وقوله عز من قائل : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنىٰ أولئك عنها مبعدون ﴾[١]

١١ ــ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون ﴾[٢]

١٢ ــ وقوله تعالى : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾[٣]

١٣ ــ وقوله سبحانه : ﴿ وأضله الله على علم ﴾[٤]

١٤ ــ وقوله عز وجل : ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾[٥]

١٥ ــ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ﴾[٦]

١٦ ــ وقوله سبحانه : ﴿ ولو شاء الله ما اشركوا ﴾[٧]

١٧ ــ وقوله عز وجل : ﴿ ولو شاء ربّك ما فعلوه ﴾[٨]

١٨ ــ وقوله تعالى : ﴿ وما تشاءونَ الا ان يشاء الله رب العالمين ﴾[٩]

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠

(٢) سورة الأعراف الآية ٩٩

(٣) سورة الأعراف الآية ١٨٢؛ والقلم ٤٤

(٤) سورة الجاثية الآية ٢٣

(٥) سورة الزمر الآية ٢٩

(٦) سورة الأنعام الآية ١١١

(٧) سورة الأنعام الآية ١٠٧

(٨) سورة الأنعام الآية ١١٢

(٩) سورة الانسان الآية ٣٠

١٩ ــ وقوله جل وعلا : ﴿ **ولو شاء ربّك لآمن مَنْ في الأرض كلهم جميعاً** ﴾[1]

٢٠ ــ وقوله سبحانه : ﴿ **ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها** ﴾[2]

٢١ ــ وقوله تعالى : ﴿ **أتريدون أن تهدوا مَنْ أضل الله** ﴾[3]

٢٢ ــ وقوله عز وجل : ﴿ **ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها** ﴾[4]

٢٣ ــ وقوله تعالى : ﴿ **وكذلك زينا لكل أمة عملهم** ﴾[5]

٢٤ ــ وقوله سبحانه : ﴿ **واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً** ﴾[6]

جاء في التفسير امرنا أي كثرنا. تقول : أمر بنو فلان ــ بكسر الميم ــ إذا كثروا.

قلت : ومن ذلك قول موسى عليه السلام : ﴿ **لقد جئت شيئاً امراً** ﴾[7]، أي : كبيراً بالباء الموحدة ــ وقول أبي سفيان : لقد أمر ابن ابي كبشة أي كبر وعظم.

٢٥ ــ وقوله عز وجل حاكياً عن الخضر عليه السلام : ﴿ **لقيا غلاماً فقتله** ﴾[8]

---

(١) سورة يونس الآية ٩٩
(٢) سورة السجدة الآية ١٣
(٣) سورة النساء الآية ٨٨
(٤) سورة الحديد الآية ٢٢
(٥) سورة الانعام الآية ١٠٨
(٦) سورة الاسراء الآية ١٦
(٧) سورة الكهف الآية ٧١
(٨) سورة الكهف الآية ٧٤

وفي الحديث الصحيح : « انه طبع يوم طبع كافرا ».

٢٦ ـــ وقوله تعالى حاكياً قول الكليم عليه الصلاة والتسليم : ﴿ **ان هي الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء** ﴾[١]

٢٧ ـــ وقوله تبارك وتعالى حاكياً قول الخليل المكرم ﷺ : ﴿ **تعذِّب مَنْ تشاء وترحم مَنْ تشاء** ﴾[٢]

٢٨ ـــ وقوله سبحانه حاكياً قول شعيب عليه السلام : ﴿ **قد افترينا على الله كَذِباً ان عُدْنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا ان نعود فيها إلا ان يشاء الله ربنا وسَعَ ربنا كل شيء علماً** ﴾[٣]

٢٩ ـــ وقوله تعالى حاكياً قول نوح ﷺ لقومه : ﴿ **ولا ينفعكم نصحي ان اردت ان انصح لكم ان كان الله يريد ان يغويكم هو ربكم واليه ترجعون** ﴾[٤]

قلت وفي قوله : « هو ربكم » إشارة الى ما ذكرت أولاً من أن تصرُّف المالك في ملكه ليس فيه ظلم اذ الرب في وضع اللغة المالك وهذا انما ظهر لي عند وضع هذا الكلام اعني كون هذه الاشارة ظاهرة في التعليل.

وكذلك قول عيسى بن مريم : ﴿ **ان تعذبهم فانهم عبادك** ﴾[٥] فان الاشارة الى التعليل المذكور ايضاً مفهومة من قوله : **فانهم عبادك**.

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٥

(٢) سورة العنكبوت الآية ٢١

(٣) سورة الأعراف الآية ٨٩

(٤) سورة هود الآية ٣٤.

(٥) سورة المائدة الآية ١١٨

٣٠ ــ وقوله عز وجل مخبراً عن اولي الألباب ومعلماً لنا الدعاء والآداب : ﴿ **ربَّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك انت الوهاب** ﴾[١]

قلت : وهذه الآية الكريمة خاتمة آيات ثلاثين نسأل الله الكريم أن يختم لنا بها ولأحبابنا والمسلمين آمين.

وهذا ما اقتصرت عليه من الكتاب المبين مما خطر بالبال وحضر في الحال.

[الأدلة النقلية من السنَّة على أن أفعال العباد واقعة بقدرة الله تعالى وارادته]

وأما الأحاديث فاقتصر منها ايضاً على ثلاثين حديثاً محذوفة الأسانيد، وطرق الروايات، منسوبة الى الكتب الستة التي هي الأصول لكتب الحديث والأمهات، والمعتمد عليها في النقل والاستدلال في جميع الجهات وهي: صحيحا البخاري ومسلم، وموطّأ مالك، وسنن أبي داود والترمذي والنسائي رضي الله عنهم أجمعين.

الحديث الأول :[٢] روينا في صحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي

---

(١) سورة آل عمران الآية ٨

(٢) قال الامام عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي المصري (١٢٥ ــ ١٩٧ هـ) في كتابه القدر ط دار السلطان للنشر والتوزيع بالسعودية في حديث ابن مسعود: هذا اسناد ليس غريبا عن جرير بن حازم عن الأعمش. روى هذا الحديث عن الأعمش جماعة منهم شعبة، والثوري والمسعودي، وزهير بن معاوية، وخالد الحذاء، وأبو شهاب الخياط، ويحيى بن زكريا بن أبي زائدة، وأبو معاوية الضرير، وجرير ابن عبد الحميد، وموسى بن أعين، وعيسى بن يونس، وسفيان بن عيينة، وعمار ابن زريعة، وعمرو بن أبي قيس، ووكيع بن الجراح، وعبد الله بن داود، وعبد الواحد ابن زياد، ومحمد بن جرير السجيمي وسعد بن الصلت، وغيرهم من الشيوخ وأتينا من ذلك بشيء مما ذكرناه فيكون تبعاً لجرير بن حازم.

داود والترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق « إنَّ أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل المَلَك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وعمله وأجله، وشقي أو سعيد. فَوَالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها »

* * *

الحديث الثاني :[1] وروينا في صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه قال : جاء سراقة بن مالك بن جعشم فقال : يا رسول الله بيِّن لنا ديننا كأنَّا خلقنا الآن فيما العمل اليوم فيما جفت به الأقلام وجرت

---

(١) الحديث حسن لذاته لأن رجاله ثقات، إلا أن أبا الزبير صدوق يدلس. ويروي به. لكن مسلماً أخرج له هذا الحديث في كتاب القدر، الباب الأول ٢٠٣٩/٤، ٢٠٤١، فدلّ على أنه يدلس.

* ورواه عن جابر مع أبي الزبير، ابن المنكدر عند الإمام أحمد في المسند ٣٠٤/٢

* ورواه عن أبي الزبير مع عمرو بن الحارث، زهير بن معاوية عند مسلم ٢٠٣٩/٤، ٢٠٤١، والطيالسي في منحة المعبود ٣٣/١، وعند أحمد في المسند ٢٩٢/٣.

* وأخرجه أبوة محمد البغوي من طريق أبي القاسم البغوي في شرح السنة ١٣٤/١، وتفسير البغوي ٢٥٢/٧، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد ٦٠١/٣

* وأخرجه الآجري في الشريعة ١٧٤ عن طريق الفريابي وسعيد بن بشير عند تمام في فوائده. رقم الحديث ١٢٧٨

* ورواه عن ابن وهب مع الهمداني، هارون بن معروف عند أحمد في المسند ٣٣٥/٣، وابو الطاهر عند مسلم ٢٠٣٩/٤، ٢٠٤١، وأصبغ عند البخاري، خلق أفعال العباد ٧١، ٧٢، وأبو همام عند أبي يعلى في مسنده ١١٤، ١١٦، ويونس عند الطبري.

به المقادير أم فيما يستقبل؟ قال: بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير. قال: ففيم العمل؟ قال: « اعملوا فكل ميسر لما خلق له وكل عامل بعمله ».

* * *

الحديث الثالث: روينا في صحيح مسلم[1] أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: « إن الرجل يعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة »

* * *

الحديث الرابع: روينا في صحيح مسلم[2] وجامع الترمذي عن

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، ٢٠٤٢/٤ في ٤٦، كتاب القدر، الباب الأول، رقم الحديث ١١ (٢٦٥١).

(٢) عزاه السيوطي في كنز العمال ٤٩٨/١ الى مسلم عن ابن عمر. رواه مسلم في صحيحه ٢٠٤٤/٤ في ٤٦، كتاب القدر، الباب الثاني رقم الحديث ١٦ (٢٦٥٣) وجاء في هامشه: « كتب الله المقادير »، قال العلماء: المراد تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ وغيره، لا أصل التقدير فان ذلك أزليّ لا أول له.

* عن عمران بن حصين رضي الله عنه: أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، وابو داود في كتاب السنة وعون المبعود، والإمام أحمد في المسند، وابن حبان في الإحسان.

* وعن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه: أخرجه البخاري في كتاب التوحيد والأدب المفرد، ومسلم في صحيحه، والترمذي في ابواب القدر، وابو داود في كتاب السنة وعون المعبود، وابن ماجه في المقدمة. وأحمد بن المسند، والطبراني في المعجم الصغير، وابن حبان في الإحسان. والطبري في التفسير.

* وعن عمر رضي الله عنه: أخرجه الترمذي في أبواب القدر، وتحفة الأحوذي، والطيالسي وأحمد في المسند. والبخاري في خلق أفعال العباد، والبزار في كشف الأستار.

* وعن أبي الدرداء رضي الله عنه: أخرجه البخاري في صحيحه. وعن أبي بكر رضي الله عنه: أخرجه أحمد في المسند، والبزار في كشف الاستار، والطبراني في المعجم الكبير. وعن سراقة بن مالك رضي الله عنه: أخرجه ابن ماجه في المقدمة.

عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء ».

قال العلماء : المراد تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ أو غيره لا اصل التقدير فان ذلك لا أول له.

* * *

الحديث الخامس : روينا في صحيح مسلم[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال ﷺ : « المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف، في كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء، فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فان لو تفتح عمل الشيطان ».

قال العلماء : والمراد بالقوة عزيمة النفس في أمور الآخرة وما يتعلق بالدين من الإقدام في الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصبر على الأذى وأنواع البلاء، واحتمال المشاق في الطاعات، والنشاط في العبادات من الأذكار والصوم والصلوات وغير ذلك من المهمات.

* * *

الحديث السادس : روينا في صحيح مسلم[2] وسنن أبي داود والنسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت : توفي صبي. فقلت : طوبى له عصفور من عصافير الجنة. فقال ﷺ : « أوَلا تدرين أن الله خلق الجنة وخلق النار فخلق لهذه أهلاً ولهذه أهلا ؟ ».

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه ٢٠٥٢/٤ في كتاب القدر ٤٦ باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله. رقم الحديث ٣٤ (٢٦٦٤)

(٢) رواه مسلم في صحيحه ٢٠٥٠/٤ في ٤٦، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين. رقم الحديث ٢٦٦٢

الحديث السابع :[1] روينا في الصحيحين وسنن أبي داود والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سئل ﷺ عن اولاد المشركين فقال : « الله اعلم إذ خلقهم بما كانوا عاملين ».

قلت : وسيأتي في آخر الكتاب ذكر خلاف فيهم من أهل السنة والصحيح أنهم في الجنة لحديث صحيح يأتي ذكره هنالك.

الحديث الثامن : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال ﷺ : « حاجّ آدم موسى فقال : أنت الذي أخرجت الناس من الجنّة بذنبك وأشقيتهم. فقال آدم لموسى : أنت الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه، أتلومني على أمر كتبه الله تعالى قبل أن يخلقني أو قدره عليَّ قبل أن يخلقني. قال ﷺ : فحجّ آدم موسى »[2].

---

(١) قال الإمام أبو الحسن الأشعري في كتابه « الإبانة عن أصول الديانة » :
ويقال لهم ــ المعتزلة ــ أليس قد آلم الله عز وجل الأطفال في الدنيا بالآلام أوصلها اليهم كنحو الجذام الذي يقطع ايديهم وأرجلهم وغير ذلك مما يؤلمهم وكان ذلك سائغاً جائزا فاذا قالوا : نعم، قيل لهم : فاذا كان هذا عدلا فما أنكرتم أن يؤلمهم من الآخرة ويكون ذلك منه عدلا فإن قالوا آلمهم في الدنيا لتعتبر بهم الآباء. قيل لهم : فاذا فعل ذلك بهم في الدنيا ليعتبر بهم الآباء وكان ذلك منه عدلا وقد قيل في الخبر : إن الأطفال تؤجج لهم نار يوم القيامة ثم يقال لهم اقتحموها فمن اقتحمها أدخل الجنة ومن لم يقتحمها ادخل النار.
مأخوذ من نسخة نقلتها بخط يدي عن النسخة التي نشرها الشيخ قصي محب الدين الخطيب.

(٢) رواه البخاري ٤/١٣١ فتح في ٦٠ كتاب أحاديث الأنبياء ــ ٣١ باب وفاة موسى وذكره بعد، من طريق ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن عن ابي هريرة
وروي في ٥/٢٣٩ فتح ٦٥/٢٠ كتاب التفسير ــ ١ باب واصطفيتك لنفسي من طريق مهدي بن ميمون عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة نحوه.
وروي ٥/٢٣٩، ٢٤٠ فتح من الكتاب نفسه ــ ٣
« باب فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى » من طريق أيوب بن النجار، عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة نحوه =

أخرجه البخاري ومسلم ومالك وأبو داود والنسائي.

قلت : وانما حجّه لأنه لامه على ذنبه بعد التوبة منه، والذنب بعد التوبة غير مواخذ به بفضل الله تعالى. وأما قبل التوبة فالقدر لا يقوم به حجة للمذنبين لأنهم مواخذون بعدل الله تعالى.

* * *

= وروي ٢١٤/٧ فتح في ٨٢ باب تحاج آدم وموسى عند الله ـــ من طريق سفيان عن عمرو عن طاوس عن أبي هريرة نحوه. وكذلك من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة وفي ٢٠٣/٨ فتح ٩٧ التوحيد ٣٧ باب ما جاء من قول الله تعالى وكلم الله موسى تكليما من طريق ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة نحوه ورواه مسلم ٢٠٤٣/٤ ـــ ٢٠٤٤ في ٤٦ كتاب القدر ـــ ٢ باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام بسنده لصحيفة همام بن منبه رقم ٢٦٥٢/١٥.

ورواه أحمد في مسنده ٥٦/٦ ضمن روايته لصحيفة همام بن منبه رقم ٤٦/٨١٤٣ ورواه عبد الرازق ١١٣/١١ في كتاب الجامع ـــ باب القدر ـــ عن معمر عن همام عن أبي هريرة « رقم ٢٠٠٦٨ » وفيه أفتلومني على أمر كان قد كتب قبل أن أفعله ـــ أو قال: من قبل أن أخلق ».

الفوائد المستفادة من الحديث الثامن:

١ ـــ قال القاضي عياض: ففيه حجة لأهل السنة من أن الجنة التي أخرج منها آدم هي جنة الخلد التي وعد المتقون ويدخلونها في الآخرة، خلافاً لمن قال عن المعتزلة وغيرهم إنها جنة أخرى ومنهم من زعم أنها من الأرض.

٢ ـــ فيه مشروعية الحجج في المناظرة، لإظهار طلب الحق وإباحة التوبيخ والتعريض في أثناء الحجاج ليتوصل الى ظهور الحجة، وأن اللوم على من أيقن وعلم أشد من اللوم على من لم يحصل له ذلك.

٣ ـــ فيه مناظرة العالم من هو أكبر منه والابن أباه، ومحل مشروعية ذلك إذا كان لإظهار الحق، أو لازدياد من العلم، والوقوف على حقائق الأمور.

٤ ـــ فيه حجة لأهل السنة في إثبات القدر وخلقه أفعال العباد.

٥ ـــ وفيه انه يغتفر للشخص في بعض الأحوال ما لا يغتفر في بعض كحالة الغضب والأسف، وخصوصا ممن طبع على حدة الخلق وشدة الغضب فإن موسى عليه السلام لما غلبت عليه حالة الانكار في المناظرة خاطب آدم مع كونه والده باسمه مجرداً، وخاطبه بأشياء لم يكن ليخاطب بها في غير تلك الحالة، ومع ذلك فأقره على ذلك، وعدل الى معارضته فيما أبداه من الحجة في دفع شبهته. والله أعلم. =

الحديث التاسع : روينا في صحيح[1] البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : سئل ﷺ عن الطاعون فقال : « كان عذاباً يبعثه الله عز وجل على مَنْ كان قبلكم، فجعله رحمة للمؤمنين. ما من عبد يكون في بلد يكون فيه الطاعون فيمكث فيه ولا يخرج صابراً محتسباً يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له الا كان له مثل أجر شهيد ».

* * *

الحديث العاشر :[2] روينا في صحيح البخاري أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال ﷺ : « تعوذوا بالله من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الاعداء ».

* * *

الحديث الحادي عشر : روينا في صحيح البخاري[3] أيضاً عن سهل بن سعد رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « إن العبد ليعمل عمل

= راجع فتح الباري ٥١٢/١٢ وصحيفة همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه تحقيق د / رفعت فوزي عبد المطلب

(١) انظر صحيح البخاري كتاب الانبياء باب ٥٢ الحديث رقم ٣٢٨٧ ــ وكتاب الطب، باب أجر الصابر في الطاعون الحديث رقم ٥٤٠٢ ــ وكتاب القدر، باب قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا الحديث رقم ٦٢٤٥

(٢) انظر صحيح البخاري، كتاب القدر، باب من تعوذ بالله من درك الشقاء وسوء القضاء، الحديث رقم ٦٢٤٢ ــ وكتاب الدعوات باب التعوذ من جهد البلاء، الحديث رقم ٥٩٨٧ ــ
وأخرجه الإمام مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب التعوذ من سوء القضاء، الحديث رقم ٢٧٠٧

(٣) انظر صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب الأعمال بالخواتيم وما يخاف منها، الحديث رقم ٦١٢٨ ــ وكتاب الجهاد، باب لا يقول فلان شهيد، الحديث رقم ٦١٢٨.
وراجع أطراف الأحاديث التي تحمل الارقام : ٣٩٦٩، ٣٩٧٠، ٦١٢٨، ٦٢٣٣

أهل النار وهو من أهل الجنة، ويعمل عمل أهل الجنة وهو من أهل النار. وإنما الأعمال بالخواتيم ».

* * *

الحديث الثاني عشر : روينا في صحيح البخاري أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال ﷺ : « جفّ القلم بما أنت لاق »[1].

* * *

الحديث الثالث عشر : روينا في صحيح البخاري[2] أيضاً عن عمران بن الحصين رضي الله عنه قال : قال ﷺ : « كل يعمل لما خلق له او لما تيسَّر له ».

* * *

الحديث الرابع عشر : روينا في صحيح البخاري[3] أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال ﷺ : « إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة. فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه ».

* * *

---

(١) انظر صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب ما يكره من التبتل والخصاء، الحديث رقم ٤٧٨٨

(٢) انظر صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب فسنيسِّره لليسرى، الحديث رقم ٤٦٦٦، وراجع الحديث رقم ١٢٩٦، وراجع تخريج الحديث الثاني.

(٣) انظر صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب زنا الخوارج دون الفرج، الحديث رقم ٨٨٩ وانظر أيضاً الحديث رقم ٦٢٣٨
وأخرجه مسلم في كتاب القدر باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره، الحديث رقم ٢٦٥٧

الحديث الخامس عشر :[1] روينا في صحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود عن علي كرم الله وجهه قال : « كنّا في جنازة ببقيع الغرقد فأتانا رسول الله ﷺ فقعد، وقعدنا حوله، وبيده مِخْصَرة، فجعل ينكت بها الأرض (وفي رواية بعضهم عود) فقال : ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار أو من الجنة. فقال رجل من القوم : لا نتكل يا رسول الله ؟ قال: لا، اعملوا فكل ميسر. وفي رواية بعضهم: فقالوا : يارسول الله، أفلا نتكل على كتابنا ؟ فقال : اعملوا فكل ميسّر لما خلق له » الحديث.

* * *

الحديث السادس عشر : روينا في صحيح مسلم عن يحيى بن يعمر رحمه الله تعالى، قال : « كان أول من قال بالقدر في البصرة معبد الجُهَنِي فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجّين أو معتمرين فقلنا : لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر. فوفق لنا عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما داخلاً المسجد، فاكتنفته انا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله. فظننت أن صاحبي سَيَكِلُ الكلامَ اليَّ، فقلت : ابا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن ويتقفّرون العلم وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قدر، وان الأمر أُنُفُ ـــ قال : فاذا لقيتَ أولئك فأُخبرهم أني بريء منهم وأنهم برءاء مني. والذي يحلف به عبدالله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أُحُد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر.

---

(١) انظر صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رفع البصر الى السماء، الحديث رقم ٥٨٦٣، وانظر ايضاً الحديث رقم ١٢٩٦. وراجع تخريج الحديثين الثاني والرابع عشر.

ثم قال : حدثني أبي عمرُ بْنُ الخطاب قائلاً : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منّا أحدٌ حتى جلس الى النبي ﷺ، فاسند ركبتيه الى ركبتيه، ووضع كفيه على فَخْذَيْهِ، وقال : يا محمد اخبرني عن الإسلام. فقال ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ الله، وتقيمَ الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجَّ البيت إن استطعت إليه سبيلاً — فقال : صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه — قال : فأخبِرْني عن الإيمان. فقال : أَنْ تؤمن بالله وملائكته وكُتُبه ورُسَلِه واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشرّه. قال : صدقت. قال : وأخبرني عن الإحسان. قال : أن تعبد الله كأنّك تراه، فان لم تكن تراه فإنه يراك. قال : فأخبرني عن الساعة — قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل. قال : فأخبرني عن أمارتها — قال أن تلد الأمة ربَّها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان — قال : ثم انطلق، فلبثت مليا. ثم قال : أتدري مَنِ السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم. قال : فانه جبريل أتاكم يعلّمكم دينكم. أخرجه البخاري ومسلم وابو داود والنسائي والبيهقي وغيرهم.

وقوله: (يتقفرون) هو بتقديم القاف على الفاء، ومعناه: يطلبونه ويتبعونه. هذا هو المشهور — وقيل معناه يجمعونه — ورواه بعضهم بتقديم الفاء وهو صحيح أيضاً ومعناه يبحثون عن غامضه ويستخرجون خفيه. وروي في غير مسلم (يقتفون) بتقديم القاف وحذف الراء، وهو صحيح أيضاً ومعناه ايضاً يتبعونه وقال بعضهم : (يتقعرون) بالعين، وفسّره بأنهم يطلبون قعره أي غامضَه وخفيه، ومنه : متقعر في كلامه اذا جاء بالغريب منه — وفي رواية بعضهم (يتفقهون) بزيادة الهاء وهو ظاهر.

قلت : هذا مختصر كلام شرّاح الحديث رحمهم الله تعالى.

وقوله : يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف هو بضم الهمزة والنون أي مستأنف لم يسبق به قدر ولا علم من الله، وإنما يعلمه بعد وقوعه. قال أئمتنا : وهذا قول غلاتهم وليس قول جميع القدرية وكذب قائله وضل وافترى.

قلت : يعنون أن القدرية صنفان : أحدهما ينفي القدر والعلم معاً، والثاني ينفي القدر فحسب. وسيأتي إن شاء الله إيضاح ذلك، وبيان حكم الصنفين في التكفير، وأن الأول منهما كافر بلا خلاف وهم الذين أراد ابن عمر وكلامه ظاهر في تكفيرهم. وفي الثاني اختلاف بين أئمة أهل الحق، والله أعلم.

* * *

الحديث السابع عشر : روينا في صحيح مسلم[1] وجامع الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر فنزلت ﴿ **يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا من سَقَر إنّا كل شيء خلقناه بقَدَرٍ** ﴾[2].

قلت : فهذه سبعة عشر حديثاً كلها في القدر وكلها صحاح رويناها في الصحيحين معاً، وبعضها في أحدهما، كما ترى، مع زيادة ما ذكرت من رواية ما في الكتب الستة التي هي أصول الإسلام، وأمهات الأخبار، ورواتها الذين ذكرتهم من سادات الصحابة رضي الله عنهم عشرة : عمر وعلي وابن عباس وابن مسعود وابو هريرة وعمران بن الحصين وجابر بن عبدالله وسهل بن سعد وعمرو بن العاص وعائشة زوج النبي ﷺ.

---

(١) جامع الترمذي ٤٥٩/٤، كتاب القدر، الباب ١٩، الحديث رقم ٢١٥٧

(٢) سورة القمر الآيتان ٤٨ و ٤٩

وها أنا أردفها بأحاديث أخرى في القدر أيضاً مما أخرجه أبو داود والترمذي وهي ثلاثة عشر تتمة الثلاثين التي وعدت بها.

* * *

الحديث الثامن عشر: روينا في سنن أبي داود[1] عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع يشهد أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله بعثني بالحق ويؤمن بالموت ويؤمن بالبعث بعد الموت ويؤمن بالقدر».

* * *

الحديث التاسع عشر: روينا في سنن أبي داود[2] عنه ﷺ: «انه سأله رجل من مُزَينة أو جهينة، فقال: يا رسول الله فيما يعمل في شيء خلا ومضى أو شيء يستأنف الآن؟ قال: في شيء خلا ومضى ـــ فقال الرجل أو قال بعض القوم: ففيم العمل؟ قال: «إن أهل الجنة مُيَسَّرون لعمل أهل الجنة، وان اهل النار ميسَّرون لعمل أهل النار».

الحديث العشرون: روينا في جامع الترمذي[3] عن جابر بن سمرة

---

(١) انظر كنز العمال ١/١١٦ الحديث رقم ٥٤٢. وعزاه السيوطي للإمام أحمد في المسند. واخرجه الترمذي وابن ماجه، والحاكم، جميعاً عن علي رضي الله عنه.

(٢) عزاه السيوطي، كما في كنز العمال ١/١١٤ الحديث رقم ٥٣٥، الى أبي داود عن عمر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء في الايمان بالقدر خيره وشره، الحديث رقم ٢١٤٤
فقال أبو عيسى: وفي الباب عن عبادة وجابر وعبد الله بن عمرو، وهذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن ميمون. وعبد الله بن ميمون منكر الحديث.

رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشرّه وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ».

* * *

الحديث الحادي والعشرون: روينا في سنن أبي داود[1] والترمذي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قالَ لابنه عند الموت: «يا بنيّ إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك. فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن اوّل ما خلق الله القلم؛ قال له: اكتب. فقال: يا رب وماذا اكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى يوم القيامة، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من مات على غير هذا فليس مني ».

* * *

الحديث الثاني والعشرون: روينا في كتاب الترمذي عن عمرو ابن العاص رضي الله عنه قال: « خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال: أتدرون ما هذان الكتابان؟ فقلنا: يا رسول الله إلّا أن تخبرنا. فقال للذي في يده اليمنى: هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً. وقال للذي في شماله: هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء اهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم ابداً. فقال أصحابه: ففيمَ العمل يا رسول الله إن كان أمر قد فرغ منه؟ فقال: سددوا وقاربوا، فان صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وإنْ عمل أي عمل، وإنَّ

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٥٠ الى ابن أبي شيبة. وأخرجه أحمد والترمذي وصححه وابن مردويه جميعاً عن عبادة بن الصامت.

صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإنْ عمل أي عمل. ثم قال ﷺ بيديه فنبذهما ثم قال : فرغ ربكم من العباد فريق في الجنة وفريق في السعير »[1].

قال الترمذي وفي الباب عن ابن عمر : هذا حديث حسن صحيح غريب.

* * *

الحديث الثالث والعشرون : وروينا في كتاب الترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « ان الله خلق كل نفس وكتب حياتها ورزقها ومصائبها ومحابها ». وهذا بعض الحديث[2].

* * *

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٤/٤٤٩، كتاب القدر، باب ما جاء أن الله كتب كتاباً لأهل الجنة وأهل النار، الحديث رقم ٢١٤١
هذا حديث صحيح ورجال ثقات إلا ابن لهيعة صدوق، خلط ويدلس. ورواه الإمام أحمد في مسنده ٢/١٦٧ من طريق هاشم بن القاسم، وسعيد بن أبي مريم المصري.
* عن ابن عباس رضي الله عنهما : أخرجه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد ٣/٦٠٧، والدارقطني في الأفراد [كنز العمال ١/١٢٧].
* وعن علي رضي الله عنه : أخرجه الطبراني في الأوسط. قال الهيثمي : فيه حماد ابن واقد الصفار وهو ضعيف [مجمع الزوائد ٧/٢١٣].
* وعن ابن عمر رضي الله عنهما : أخرجه البزار في كشف الاستار ٣/٢٦، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد ٣/٦٠٨. قال الهيثمي : وفي سند البزار عبد الله بن ميمون القداح وهو ضعيف. وقال البزار: صالح وبقية رجاله رجال الصحيح [مجمع الزوائد ٧/٢١٢].
* وعن أبي الدرداء، وواثلة بن الأسقع، وأبي أمامة، وأنس بن مالك رضي الله عنهم : أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٨/٧٩، ٢٢/٨٢
* وعن عبد الله بن بسر رضي الله عنه : أخرجه الطبراني في الأوسط، وفيه الهذيل ابن بلال وهو ضعيف [الهيثمي ــ مجمع الزوائد ٧/١٨٧].

(٢) انظر الجامع الصحيح للترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء لا عدوى ولا هامة ولا صفر. ولفظ الحديث : عن ابن مسعود قال : قام فينا رسول الله ﷺ : « لا يعدي =

الحديث الرابع والعشرون : روينا في كتاب الترمذي أيضاً عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله خلق خلقه في ظلمة، وألقى عليهم من نوره، فمن أصابه ذلك النور فهادى، ومن أخطأه ضلّ. فلذلك أقول جف القلم على علم الله[1].

* * *

الحديث الخامس والعشرون : في الرضاء بالقدر روينا في جامع الترمذي أيضاً عن سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله، ومن شقاوة ابن آدم تركه استخارة الله، ومن شقاوة ابن آدم سخطه بما قضى الله »[2].

* * *

الحديث السادس والعشرون[3]: في ذمّ القدرية روينا في سنن أبي داود عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل أمة مجوس ومجوس هذه الأمة القدرية الذين يقولون لا قدر. مَنْ مات

= شيء شيئاً ». فقال أعرابي : يا رسول الله البعير الجرب الحشفة (القرحة) بذنبه فتجرب الإبل كلها. فقال رسول الله ﷺ : « فمن أجرب الأول ؟ لا عدوى ولا صفر، خلق الله كل نفس وكتب حياتها ورزقها ومصائبها ».

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٧٦/٢، ١٩٧. وانظر : الحاكم ٣٠/١، وابن حبان ١٨١٢، وسنن ابن أبي عاصم ١٠٧/١، ١٠٨، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ١٠٧٦، ومجمع الزوائد ١٩٣/٧، وكنز العمال ٥٨٢، ١٣١٤، وجمع الجوامع ٤٨١٦، وتفسير ابن كثير ٦٤/٦، ٥٢٢ — ٦٣/٧

(٢) انظر الجامع الصحيح للترمذي، ٤٤٥/٤، كتاب القدر، باب ما جاء في الرضا بالقضاء، الحديث رقم ٢١٥١

(٣) انظر كنز العمال ١١٨/١ الحديث رقم ٥٥٤ و ٥٥٥. حديث متفق عليه. وأخرجه الإمام أحمد عن ابن عمر، والنسائي عن حذيفة، رضي الله عنهم.

منهم فلا تشهدوا جنازته، ومن مرض منهم فلا تعودوه، فهم شيعة الدجَّال وحق على الله أن يلحقهم بالدجَّال ـــ زاد في رواية : فلا تجالسوهم ولا تفاتحوهم الكلام ».

* * *

الحديث السابع والعشرون : روينا في كتاب الترمذي[1] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب : المرجئة والقدرية ».

* * *

الحديث الثامن والعشرون : روينا في سنن أبي داود والترمذي[2] عن النبي ﷺ أنه قال : « يكون في هذه الأمة خسف ومسخ وذلك في المكذبين بالقدر ». رواه ابن عمر رضي الله عنهما. قال : وعن يافع أن رجلاً أتى ابن عمر فقال : إن فلاناً يقرأ عليك السلام الرجل من اهل الشام. فقال ابن عمر : إنه بلغني أنه قد أحدث التكذيب بالقدر فان كان قد أحدث فلا تقرئه مني السلام فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يكون في هذه الامة خسف ومسخ ». الحديث.

* * *

الحديث التاسع والعشرون : روينا في كتاب الترمذي[3] عن أبي

---

(١) انظر الجامع الصحيح للترمذي ٤٥٤/٤، كتاب القدر، باب ما جاء في القدرية، الحديث رقم ٢١٤٩. قال أبو عيسى : وفي الباب عن عمر وابن عمر ورافع بن خديج. وهذا حديث غريب حسن صحيح.

(٢) انظر الجامع الصحيح للترمذي ٤٥٦/٤، كتاب القدر، الباب ١٦، الحديث رقم ١٥٢ط. قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب، وأبو صخر اسمه حميد بن زياد.

(٣) انظر الجامع الصحيح للترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء أن النفس تموت حيث ما كتب لها، الحديث رقم ٢١٤٦، عن مطر بن عكامس. قال ابو عيسى: وفي =

عِزة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: « اذا قضى الله لعبد أن يموت بأرض جعل له اليها حاجة ».

قلت: ومن هذا نقل أنه جاء بعض الناس الى سليمان بن داود عليهما السلام وقال له: يا نبي الله أريد منك أن تأمر الريح تحملني الى بلاد الهند، فإن لي فيها حاجة في هذه الساعة، والحّ عليه في ذلك. فقال له: نعم. وأمر الريح أن تحمله. فلما خرج من عنده التفت سليمان فرأى ملك الموت عليه السلام قائماً عنده، ورآه متبسِّماً، فسأله عن تبسُّمِهِ، فقال: يا نبي الله تعجبت من هذا الرجل فإني أمرت بقبض روحه في أرض الهند في هذه الساعة. فبقيت مفكراً كيف يصل الى بلاد الهند في هذه الساعة فلما سألك أن تأمر الريح تعجبتُ من ذلك. انتهى.

وفي هذا المعنى قلت:

فمن لم تأته منا المنايا الى أوطانه يوماً أتاها
كما قال الذي عزى نفوساً وقوى في توكلها قواها
فمن كانت منيته بأرض فليس يموت في أرض سواها

عن الامام مالك رضي الله عنه انه بلغه انه قيل لإياس: ما رأيك في القدر؟ فقال: لا يعلم سره الّا الله. وكان يضرب به المثل في الفهم.

قلت: ومما ضرب المثل به قول أبي تمام يمدح بعض الخلفاء، قيل هو المأمون، وقيل هو المعتصم، بشعر من جملته قوله:

اقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

شبَّهه في الشجاعة بعمرو بن معدي كرب، وفي الكرم بحاتم طي المشهور، وفي الحلم بالسيد الجليل الأحنف بن قيس، وفي الذكاء

= الباب عن أبي عزة. وهذا حديث حسن غريب، ولا يعرف لمطر بن عكامس عن النبي ﷺ غير هذا الحديث.

بإياس بن معاوية بن قرة الإمام المشكور. فغضب بعض جلساء الممدوح من كبراء دولته من تشبّه إياه بعمرو وحاتم في شجاعته وسماحته، وتكلم عليه في ذلك مصغراً له لهما جنبه ومنكراً بالتشبيه بأهل الكفر الذي لا يحمد. فأطرق أبو تمام مفكراً في ذلك ثم أنشد[1] :

لا تعجبوا من ضربي له مِنْ دونه مثـ ـلاً شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

قلت : يعني أن الله تعالى قد ضرب النور الأقل مثلاً لنوره العظيم الأجل. وذلك قوله سبحانه : ﴿ **الله نور السمٰوات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح** ﴾[1] الآية.

فزال الغضب وتعجّبوا من براعة فطنته واتقاد قريحته غاية العجب، وسألوه عن إطراقه وسكوته. فذكر كلاماً معناه أنه فكّر في شاهد يشهد له من كلام العرب فلم يجده، فاستفتح كلام الله فوجد فيه ما طلب.[2]

قلت : لما لحقته في ذلك الملامة فكّر في شاهد يشهد لكلامه بالاستقامة، فالتمس ذلك في كلام العرب فلم يحصل له فيه إِرَبٌ، فارتحل بفكره وانتقل الى كلام الله عز وجل وغاص في بحر جواهر علومه على عجل في غوصه حتى انتهى الى بحر جواهر النور فاستخرج منه جوهرة الشاهد المذكور.

قلت : والكلام في هذا وأشباهه يطول ويخرجنا مما نحن له قاصدون. فلهذا اخترت الإضراب عن ذكر شيءٍ من المحاسن والآداب وحلم

---

(١) سورة النور الآية ٣٥

(٢) راجع هذه الحكاية في كتاب ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي ١٠٤/١ بهامش كتاب المستطرف في كل فن مستظرف للابشيهي، ط. مصطفى البابي الحلبي.

الأحنف بن قيس المذكور وما ذكر من تعلمه ذلك من قيس بن عاصم المشهور.

رجعنا الى ما كنا بصدده. وعن الإمام مالك أيضاً أنه سأله رجل عن القدر فقال : ألست تؤمن به : قال : بلى. فقال : حسبك. حدثني علي بن الحسين عن أبيه رضوان الله عليهما أن رسول الله ﷺ قال : « من حسن إسلام المرء تَرْكُهُ مَا لاَ يعنيه »[1].

وبلغه أيضاً أنه قيل للقمان رضوان الله عليه : ما بلغ بك الى ما يُرَى ؟ قال : أداء الأمانة، وصدق الحديث، وتركي ما لا يعنيني.

وقال الإمام محيي الدين النووي رضي الله عنه : قال الإمام أبو المظفر السمعاني رضي الله عنه : سبيل معرفة هذا الباب التوفيق من الكتاب والسنة دون محض القياس ومجرد العقول، فمن عدل عن التوفيق فيه ضلَّ وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ شفا النفس، ولا يصل الى ما يطمئن به القلب؛ لان القدر سرّ من أسرار الله تعالى ضُرِبَتْ دونه الأستار، واختص الله تعالى به وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم لما علمه من الحكمة. وواجبنا ان نقف حيث حدّ لنا ولا نتجاوزه وقد طوى الله تعالى علم القدر عن العالم فلم يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب. وقيل إن سرّ القدر ينكشف لهم إذا دخلوا الجنة ولا ينكشف قبل دخولها.

* * *

الحديث الثلاثون :[2] روينا في كتاب الترمذي عن أبي هريرة

---

(١) انظر كنز العمال ٦٤٠/٣ الحديث رقم ٨١٩١. وعزاه السيوطي الى الترمذي في كتاب الزهد الحديث رقم ٢٣١٨، والى ابن ماجه في كتاب الفتن الحديث رقم ٣٩٧٦

(٢) انظر مسند الترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر، الحديث رقم ٢١٣٣

رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى احمرّ وجهه حتى كأنما فُقئ في وجنيه حبُّ الرمان ــ وقال : « أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت اليكم إنما هلك مَنْ كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم أن لا تتنازعوا فيه ».

[إيضاح وتعقيب]

قلت : فهذه ثلاثون حديثاً في القدر جمعتها من الصحيحين وباقي الكتب الستة التي فضلها أشهر، أخرجها كل إمام حافظ نقاد خبير، رووها بالأسانيد المتصلة، ورواها عنهم الجمُّ الغفير، فهي الأُمَّهات كما قدمت لكتب الحديث والأصول، والوسيلة التي يحصل بها الى معرفة السنة الوصول، عليها اعتمد العلماء في جميع الأعصار، وبها استدلّ الفقهاء في جميع الأمصار.

وقد قدمت أن سبعة عشر حديثاً من الثلاثين المذكورة كلها صحاح روينا بعضها في الصحيحين معاً وبعضها في أحدهما، مع ما ذكرت من زيادة رواية باقي الكتب الستة الصحاح وذكرت أيضاً أن رواتها عشرة من سادات الصحابة رضي الله عنهم وسمَّيْتهم، وقد زاد معهم في رواته الثالثة عشر ستة منهم.

[من هم رواة أحاديث القدر من الصحابة ؟]

فجميع رواة أحاديث القدر التي ذكرتها في هذا المختصر من الصحابة رضي الله عنهم ستة عشر، وجميع رواياتهم فيه مسندة لنا مسموعة وهذه اسماؤهم رضي الله عنهم مجموعة : ١ ــ عمر بن الخطاب، ٢ ــ وعلي بن ابي طالب، ٣ ــ وسعد بن أبي وقاص، ٤ ــ وعبدالله ابن عباس، ٥ ــ وعبدالله بن عمر، ٦ ــ وعبدالله بن مسعود، ٧ ــ وحذيفة بن اليمان، ٨ ــ وابو هريرة، ٩ ــ وعمران بن حصين، ١٠ ــ

وجابر بن عبد الله، ١١ ــ وجابر بن سمرة، ١٢ ــ وعبادة بن الصامت، ١٣ ــ وسهل بن سعد، ١٤ ــ وعمرو بن العاص، ١٥ ــ وابو عزة، ١٦ ــ وعائشة بنت أبي بكر.

وروىٰ أئمة الحديث في ذلك أحاديث أخرى أيضاً عن خلائق من الصحابة غير المذكورين، منهم : أبو بكر الصديق، وعبدالله بن عمر ابن العاص، وأنس بن مالك، ومعاذ بن جبل، وأُبَيّ بن كعب، وابو سعيد، وأبو الدرداء، وخباب بن الأرت، وابن حميد الساعدي، وعديّ ابن حاتم، وأبو سريحة الغفاري، وذو اللحية الكلاعي، وسراقة بن جعشم، وابو خزامة، وأسماء بنت أبي بكر.

وهؤلاء خمسة عشر. الجملة، [فيحصل في المجموع] أحد وثلاثون صحابيًّا مع غيرهم رضي الله عنهم أجمعين، وجعلنا لهديهم متبعين، وبدينهم الحق ندين وجمع بيننا وبينهم يوم الدين مع سائر الأحباب والمحبين آمين.

قلت : فما تقول أيها المعتزلي في مجموع هذه الأخبار التي رواها أئمة الحديث الأعلام الأحبار، عن الثقات والسادات والأخيار، عن المصطفى المكرم ﷺ، مع كثرتها، وكثرة مخرجها، وشهرتها، وحسنها، وصحتها، وكثرة طرقها، وصريح منطوقها الظاهر في إثبات القدر ووجوب الايمان به على طريق التواتر ــ أيترك الأخذ بها والإيمان بمقتضاها، ويقتصر على محض حكم العقول ونرمي بحكم الشرع وسنة الرسول والله سبحانه وتعالى يقول في محكم كتابه الذي على سائر الكتب يزهو ﴿**وما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾[1] ؟ فأي دين يبقى لنا اذا رمينا سنة نبينا ونبذناها وراء ظهورنا، وديننا

(١) سورة الحشر الآية ٧

إنما هو متلقّى منها، إذ مرجوع بيان أحكام الكتاب إليها ؟ قال الله العظيم لنبيه الكريم عليه افضل الصلاة والتسليم : ﴿ **وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نُزِلّ اليهم** ﴾[1].

هذا وآيات الكتاب المقدمات وغيرها موافقات للأحاديث المذكورات في إثبات القدر كما مر، وكذا إجماع سلف الأمة أهل الاتباع قبل ظهور الابتداع، وكذا النظر الصحيح من العقل لا يجيل ما ورد في ذلك من النقل ومن الإجماع المذكور اتفاق السلف. فأظنه على قول ما شاء الله كان وما لم يشأْ لم يكن.

وفي هذا المعنى أنشد الحبر الفاضل بحر الفضائل السيد المعظم والإمام المقدم صاحب المرتبة العلية والمشهود له عند موته بالقطبية محمد بن إدريس الشافعي القرشي المطلبي رضي الله عنه وأرضاه وجعل في علا الجنة مأواه :

ما شئتَ كان وإنْ لم أشأْ	وما شئتُ إن لم تشأ لم يكُنْ
خلقتَ العباد على ما علمت	وفي العلم يجري الفتى والمسنْ
على ذا امننتَ وهذا خذلتَ	وهذا أعنتَ وذا لم تُعِنْ
فمنهم شقيٌّ ومنهم سعيدٌ	ومنهم قبيحٌ ومنهم حَسَنْ
ومنهم فقيرٌ ومنهم غنيٌّ	وكلٌّ بأعمالِهِ مرتَهَنْ

روى ذلك عنه صاحباه المُزَني والربيع.

واما ما ذكرنا من اتصافه بالقطبية، فذلك ما رواه الشيخ الإمام شهاب الدين بن [...][2]، عن الشيخ الإمام تاج الدين بن عطاء الله، عن الشيخ الإمام العارف بالله ابي العباس المرسي، عن الشيخ الإمام العارف بالله شيخ الشيوخ المشهود له بالقطبية ابي الحسن الشاذلي رضي الله

---

(١) سورة النحل الآية ٤٤

(٢) كلمة غير واضحة وصورتها : المثلق.

عنهم أجمعين ــ مع ما شهد به الخضر عليه السلام قبل ذلك بزمانه أنه من الأوتاد ــ وذلك في قصيدة مشهورة رويناها في رسالة الإمام القشيري المشهورة.

قلت : وفي قرب الأشياء من الوقوع بسوق القدر وبعدها عنه اذا لم يقدر أحسن القائل الآخر :

الجد أنـهض بالفتـى مـن عقلـه فانهَضْ بجدِّك في الحوادث أو ذَرِ
ما اقرب الأشياء حيـن تسوّقها قــدرٌ وأبعدهــا اذا لــم تقــدرِ

ولما كتب هذا المذكور جمع فيه بين الجد والمقدور خطر لي أن أُنشد في ذلك وأقول :

اتظـن جـدك للفـوائت لاحقـاً وشريف عزمك للسوابق سابقَـا
وحميـد رأيك للحـوادث قائـداً ثــم التمنــي للأمانــي سائقَــا
هيهـات كـلٌّ للمـرامِ مخالـفٌ لحكـم حـقٍّ لا يـزال موافقَـا
كـلٌّ أبـيٍّ ينقــاد غيــر القائــدِ مقـدور خــلاق تبـارك خالقَـا

قلت : وهذه الأبيات كالمعارضة للبيت الأول منهما؛ فإنه وان كان حسناً [...][1]ولكن على إيجابه الروحاني الأول ثم إيجاب الروحاني ما دونه هل هذا إلا بحكم لا معدول له ؟ ثم تكلم معهم في الطبائع واجتماع العناصر، واستدلّ على بطلان مذهبهم المقطوع بكفره بما لا حاجة الى ذكره، إذ كفرهم ظاهر لا يحتاج الى نظر. ثم انتقل الى الكلام في الاستدلال على بطلان التحسين والتقبيح العقليين، وقال في اثناء ذلك : وسبيلنا أن نوجز عليهم القول فنقول : ما ادعيتم حسنه أو قبحه ضرورة، فانتم فيه منازعون وعن دعواكم مدفوعون، واذا بطل ادعاء الضرورة في الأصول بطل رد النظريات اليها.

---

(١) تشير المطبوعة الهندية أن سطرين اثنين مفقودان من المخطوطة التي اعتمدت.

قال : وهذه الطريقة على اتخاذها يهدم أصول المعتزلة في التحسين والتقبيح. واذا تناقصت هذه الأصول وقولهم في الصلاح والثواب والعقاب وغيرها [...][1] منها فتحسم عليهم أبواب الكلام في التعديل والتجويز.

قلت: يعني في جميع ما حكّموا فيه العقل من التحسين والتقبيح، وما بنوا على ذلك من وجوب الصلاح والإصلاح واللطف والتعويض على الآلام علىّ الله تعالى ومنشعب من ذلك مذهب أهل التناسخ.

قال : فيقال لهم لم ادعيتم العلم الضروري بالحسن والقبح مع علمكم بان مخالفيكم طبقوا وجه الأرض وأقل شرذمة منهم يربون علىٰ عدد التواتر، ولا يسوغ اختصاص طائفة من العقلاء بضرب من العلوم الضرورية دون بعض مع استواء الجميع في مداركها.

قال : ومما يوضح الحق في دربهم عن دعوى الضرورة أن الذي ادَّعوه قبيحاً على البديهة قد أطبق مخالفوهم على تجويزه واقعاً من أفعال الله تعالى مع القطع بكونه حسناً ــ فانهم قالوا الرب تعالى ان يؤلم عبداً من عبيده من غير استحقاق ولا تعويض على الالم، ومن غير جلب نفع ودفع ضرر موقنين على الألم. ثم كما قطعوا بتجويز ذلك في أحكام الله تعالى قطعوا بأنه لو وقع لكان حسناً وهذا ما لا سبيل الى دفعه. وفيه فرض تحسين في الصورة التي ادّعى المعتزلة العلم الضروري بالقبح فيها.

قال: وربما [...][2] بالرجوع الى العادات ويقولون: العقلاء يستحسنون الإحسان وإنقاذ الغرقى وتخليص الهلكى ويستقبحون الظلم والعدوان وان لم يخطر لهم السمع.

---

(١) كلمة غير واضحة وصورتها مثلقاً.

(٢) كلمة غير واضحة وصورتها : يشتغيون

قلت : يعني بالسمع حكم الشرع.

قال : وهذا تدليس وتلبيس فإنّا لا ننكر ميل الطباع الى اللذات ونفورها عن الألم والذي استشهدون[1] من هذا القبيل ــ وانما كلامنا في ما يحسن من حكم الله تعالى وفيما يقبح فيه. والدليل على ما قلناه أن العادة كما اطردت على زعمهم في استقباح العقلاء واستحسانهم، فكذلك استمرّ دأب أرباب الألباب في تقبيح تخلية العبيد، وإلا ما يفخرون بعضهم ببعض على مرأى من السادة ومسمع وهم متمكنون من حجر بعضهم عن بعض ــ فاذا تركوهم سُدىً والحالة هذه كان ذلك مستقبحاً على الطريقة التي مهدوها مع القطع بان ذلك لا يقبح في حكم الإله سبحانه.

قلت : يعني أن ذلك واقع ومشاهد من عبيد الله الفاخرين بعضهم ببعض، مع علمه تعالى بهم وقدرته على منعهم فوقوعه من أظهر الأدلّة القاطعة على عدم قبحه في حكم المولى جلّ وعلا.

وان كان قبيحاً في حكم العباد فلا يقاس الغائب على الشاهد ــ أعني لا يقاس حكم الله على حكم عبيده إذ لا يتصور القبيح في حكمه أصلاً لا شرعاً ولا عقلاً.

قال : وربما يسوّغون لاثبات وجوب شكر المنعم عقلاً على صنيعه. فيقولون : إن العاقل اذا علم أنَّ له رباً جوّز في ابتداء نظره أن يريد منه الرب المنعم شكراً، أو لو شكره لأثابه وأكرم مثواه، ولو كفر لعاقبه وأرداه. فاذا نظر له الجائزان فالعقل يرشده الى إثبات ما يؤدّي الى الأمن من العقاب وارتقاب الثواب.

وضربوا لذلك مثلاً، فقالوا : من يتصدّى له في سفرته مسلكان

(١) كذا في الاصل وربما المراد: استشهدوا أو يستشهدون !

يؤدّي كل واحد الى مقصده : واحدهما خليّ عن المخاوف عريّ عن المتالف، والثاني يشمل على المعاطب واللصوص وضواري السباع ولا غرض له في السبيل المخوف، فالعقل يقضي بسلوك السبيل المأمون.

قال : وهذا الذي ذكروه له ما قالوه فانه يعارضه خاطر آخر يناقضه. وذلك أن يخطر للعاقل أنه عبد مملوك مخترع مربوب، وأن ليس للملوك إلا ما أذن له مالكه، ولو أتعب نفسه وانصبها لصارت مكدودة مجهودة من غير إذن ربها. وقد يعتقد هذا الخاطر عنده بأن الرب غنيّ عن شكر الشاكرين، متعالٍ عن الاحتياج، وأن تعالى كما يُسْدي النعم قبل استحقاقها لا يبتغي بدلاً عليها. فاذا عارض هذا الخاطر ما ذكروه قضى العقل بتوقُّف مَنْ خطر له الخاطران.

قال : ومما يؤكد ما قلناه أن الملك العظيم إذا منح عبداً من عبيده كسرة من رغيف، ثم أراد ذلك العبد أن يدور في المشارق والمغارب ويثني على الملك بما حباه، ويشكر عطاءه وينصّ على إنعامه، فلا يعدُّ ذلك مستحسناً. فان ما صدر من الملك بالإضافة الى قدره نزير مستحقر تافه مستصغر، وجملة النعم بالإضافة الى قدر الله تعالى أقلّ وأحقر من كسيرة رغيف بالإضافة الى مُلْكِ مَلِكٍ.

قال : فان أردنا أن ينقض عليهم ما ذكروه من وجه آخر فرضنا الكلام فيمن لم يخطر له المنعم أو لا، فنقول : هذا قولكم فيمن خطرت له الفكر وعنت له العبر؛ فما قولكم في العاقل الذاهل الذي لم يخطر بباله شيء ؟ فهذا قد فَقَدَ الطريق الى العلم بالوجوب، والشكر حَتْمٌ عليه.

قال : وهذا عظيم موقعه على الخصوم؛ فان قالوا : لا بدّ أن يخطر الله تعالى ببال العاقل في أول كمال عقله ما ذكرناه، فهذا تلاعب بالدين. فكم من عاقل متمادٍ في غوايته مستمر على غرته لم يخطر له قط ما ذكروه. ثم هذه الخواطر في ابتداء النظر شكوك، والشك

في الله تعالى كفر، والرب تعالى لا يخلق الكفر على أصولهم. فان قالوا يبعث الله تعالى الى كل عاقل ملكاً يختم على قلبه ويقول في نفسه قولاً يسمعه، فهذا بهت عظيم وإثبات كلام لم يسمعه ذو عقل، وفيه نقض أصلهم في استبعاد الكلام سوى الحروف والأصوات.

[القول في الهدى والضلال والختم والطبع]

وقال أيضاً في الهدى والضلال والختم والطبع : اعلم، وفقك الله لمرضاته، أن كتاب الله العزيز اشتمل على آيٍ من القرآن دالة على تفرُّد الرب تبارك وتعالى بهداية الخلق وإضلالهم، والطبع على قلوب الكفرة منهم. هي نصوص من إبطال مذاهب مخالفي أهل الحق. ونحن نذكر عن ميامن آيات الهدى والضلال، ثم نتبعها بالآي المحتوية على ذكر الختم والطبع : فمما يعظم موقعه عليهم قوله تعالى : ﴿ **والله يدعو الى دار السلام ويهدي مَنْ يشاءُ الى صراطٍ مستقيم** ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ **إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء** ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ **من يهدي الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون** ﴾[3].

واعلم أن الهدى في هذه الآي لا يتجه حَمْلُه إلا على خَلْق الإيمان، وكذلك لا يتجه حمل الضلال على غير خلق الضلال. ولسنا ننكر ورود الهداية في كتاب الله على غير هذا المعنى الذي ذكرنا فقد ترد والمراد بها الدعوة.

---

(١) سورة النور الآية ٤٦

(٢) سورة القصص الآية ٥٦

(٣) سورة الاسراء الآية ٩٧

قال الله تعالى : ﴿ **وإنّك لتهدي الى صراطٍ مستقيمٍ** ﴾[1] معناه : وإنك لتدعو وقد ترد الهداية والمراد بها إرشاد المؤمنين الى مسالك الجنان والطرق المفضية إليها يوم القيامة.

قال الله تعالى : ﴿ **فلن يضل اعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم** ﴾[2] فذكر تعالى المجاهدين في سبيله وعنى بهم المهاجرين والأنصار، ثم قال سيهديهم. فتعيّن حمل الهداية على ما ذكرناه.

وقال تعالى : ﴿ **فاهدوهم الى صراطِ الجحيمِ** ﴾[3] معناه اسلكوا بهم إليها. والمعنى بقوله تعالى : ﴿ **فاما ثمود فهديناهم** ﴾[4]، الدعوة. ومعنى الآية إنا دعوناهم فاستحبوا العمىٰ على ما دعوا اليه من الهدى.

قال : وإنما أشرنا الى انقسام معنى الهدى والضلال ليحيطوا علماً بانا لا ننكر ورود الهدى والضلال على غير معنى الخلق، ولكنا خصصنا استدلالنا بالآي التي صدرنا الفصل بها، ولا سبيل الى حمله على الدعوة. فإنه تعالى فصّل بين الدعوة والهداية فقال : ﴿ **والله يدعو الى دار السلام ويهدي مَنْ يشاءُ** ﴾[5] فخصص الهداية وعمَّم الدعوة. وهذا مقتضى ما استدللنا به من الآيات، ولا وجه بحملها على الإرشاد الى طريق الجنان. فانه تعالى علَّق الهداية على مشيئته واختياره، وكل مَنْ يستوجب الجنان، فحتم على الله عند المعتزلة أن يدخله الجنة.

وقوله تعالى : ﴿ **فمن يُرد الله أن يَهْدِيَهُ يشرح صَدْرَهُ للاسلامِ** ﴾[6] مصرّح بأحكام الدنيا وشَرْحِ الصدر وَحَرَجِهِ، وذكر

---

(١) سورة الشورى الآية ٥٢
(٢) سورة محمد الآية ٥
(٣) سورة الصافات الآية ٢٣
(٤) سورة فصلت الآية ١٧
(٥) سورة يونس الآية ٢٥.
(٦) سورة الأنعام الآية ١٢٥

الإسلام من أصدق الآيات على ما قلنا. وإن استشهد المعتزلة في روم حمل الهداية على الدعوة أو غيرها مما يطابق معتقدهم بالآيات التي يتلونها، فالوجه أن تقول : لا بُعْدَ في حمل ما استشهدتم به على ما ذكرتموه، وإنما استدللنا بالآيات المفصلة المخصصة للهدى بقومٍ، والضلالِ بآخرين مع التنصيص على ذكر الإسلام وشَرْح الصدر له. ولا مجال لتأويلاتهم المزخرفة في النصوص التي استدللنا بها.

قال : وأما آيات الطبع والختم فمنها قوله تعالى : ﴿ **خَتَمَ اللهُ على قلوبهم** ﴾[1]، وقوله تعالى : ﴿ **بل طبع الله عليها بكفرهم** ﴾[2]، وقوله تعالى : ﴿ **وجعلنا قلوبهم قاسية** ﴾[3].

قال : وقد حارت المعتزلة في هذه الآيات واضطربت لها آراؤهم؛ فذهبت طائفة من البصريين إلى تسمية الرب تعالى الكفرة بنبذ الكفر والضلال. قالوا : فهذا معنى الطبع.

قال : ولا خفَاءَ بسقوط هذا الكلام، فان الرب تعالى تمدح بهذه الآيات وإثباتها عن اقتهاره واقتداره على ضمائر العبد وإسراره، وبيَّن أن القلوب بحكمه يقلبها كيف شاء. وصرح بذلك في قوله تعالى : ﴿ **ونقلب أفئدتهم وأبصارهم** ﴾[4].

فكيف يُستجاز حَمْلُ هذه الآيات على تسمية وتلقيب ؟ وكيف يسوغ ذلك اللبيب والواحد منا لا يعجز عن التسميات والتلقيبات ؟ فما وجه استيثار الرب بسلطانه ؟

قال : وجهل الجبائي وابنه هذه الآيات على محمل بشع مُؤذِنٍ

---

(١) سورة البقرة الآية ٧.

(٢) سورة النساء الآية ١٥٥

(٣) سورة المائدة الآية ١٣

(٤) سورة الأنعام الآية ١١٠

بقلّة إكرامهما بالدين، وذلك أنهما قالا من كفر وَسَمَ الله قلبَهُ بسمة يعلمها الملائكة، فاذا ختموا على القلوب تميّزت لهم قلوب الكفار من أفْئدة. فهذا معنى الختم عندهما، وما ذكراه مخالفة لنصّ الكتاب وفحوى الخطاب. فان الآيات نصوص في أن الله تعالى يصرف بالطبع والختم عن سبيل الرشاد مَنْ اراد صرفه من العباد فإنه تعالى قال: ﴿ **وجعلنا على قلوبهم أكنةً أن يفقهوه** ﴾[1] فاقتضت الآية كون الأكنة مانعة من إدراك الحق. والسمة التي اخترعوا القول بها لا يمنع من الإدراك والى متى نتعدىٰ غرضنا في الاختصار وقد وضح الحق وحصحص واستبان عناد المخالفين من تأويلاتهم، والله الموفق للصواب.

ثم قال في الاستطاعة وحكمها: العبد قادر على كسبه وقدرته بانية عليه. وذهبت الجبرية الى نفي القدرة، وزعموا أن ما يسمّى كسباً للعبد أو فعلاً له فهو على سبيل التجوُّز والتوسُّع في الإطلاق والحركات الإرادية بمثابة الرعدة والرعشة.

قال: الدليل على إثبات القدرة أن العبد إذا ارتعدت يده ثم حركها قصداً، فإنه يفرق بين حالتيه في الحركة الضرورية والحركة التي اختارها واكتسبها. والتفرقة بين حالتَي الاضطرار والاختيار معلومة على الضرورة، ويستحيل رجوعها الى اختلاف الحركتين. فان الضرورة مماثلة الاختيارية قطعاً، ولكل واحدة من الحركتين ذهاب من جهة واحدة وانتقال اليها. ولا وجه في ادعاء افتراقها بصفة مجهولة يدعى ــ فان ذلك يحسم طريق العمل متماثل كل مثلين ــ فاذا لم ترجع التفرقة الى الحركتين تعين صرفها الى صفة المتحرك، وليس ذلك الا القدرة. ثم نسلك بعد ذلك سبيل السبر والتقسيم في اثبات القدرة.

فنقول: يستحيل رجوع التفرقة الى نفس القائل من غير مزيد، فان

---

(١) سورة الاسراء الآية ٤٦

الأمر لو كان كذلك لاستمرت صفة النفس ما دامت النفس. فاذا رجعت التفرقة الى زائدٍ على النفس لم يخل ذلك الزائد من أن يكون حالاً أو عرضاً. وباطل ان يكون حالاً، فان الحال المجردة لا تطرأ على الجوهر، بل تتبع موجوداً طارئاً. وان كان ذلك الزائد عرضاً فتعين كونه قدرة فإنه ما من صفة من صفات المكتسب عند القدرة إلا ويتصوّر ثبوتها مع الاقتدار، وينتفي معظم الصفات المغايرة للقدرة مع ثبوت القدرة. والقدرة الحادثة عَرَضٌ من الأعراض وهي غير باقية. وهذا حكم جميع الأعراض عندنا وأطبقت المعتزلة على بقاء القدرة.

[الدليل على استحالة بقاء جميع الأعراض]

والدليل على استحالة بقاء جميع الأعراض أنها لو بقيت لاستحال عدمها.

[ما يفرضه هذا الدليل في القدرية]

قال : ويفرض هذا الدليل في القدرة، ثم سَنُبَيّنُ اطراده فيما عداه. **فنقول:** لو بقيت القدرة ثم قدر عدمها لم يخل القول في ذلك : إما أن يقدرّ انتفاؤها بضد، وهو مذهب المخالفين، وإما أن يقدّر انتفاؤها بانتفاء شرط لها وباطل تقدير عدمها بطريان ضدٍّ، فانه ليس الضد الطارئ بنفي القدرة أولى من ردّ القدرة الضد ومنعها إياه من الطريان.

ثم إذا تعاقب الضدان، فالثاني يوجد في حال عدم الأول. فاذا تحقق عدمه فلا حاجة الى الضد وقد يصرم ما قبله.

وباطل أن يقال تنتفي القدرة بانتفاء شرطها، فان شرطها لا يخلو إما أن يكون عرضاً وإما أن يكون جوهراً.

فان كان عرضاً فالكلام في بقائه وانتفائه كالكلام في القدرة.

وإن كان جوهراً، فلا يتصور مع القول ببقاء الأعراض انتفاء الجواهر، فان سبيل انتفائها قطع الأعراض عنها. فاذا قضى بقاء الأعراض لم يتصور عدمها، فاذا امتنع تقدير عدمها امتنع عدم الجوهر، وبطل المصير الى ان القدرة تعدم بإعدام الله تعالى إياها ــ فان الإعدام هو العدم والعدم نفي محض، ويستحيل أن يكون المقدور نفياً؛ اذ لا فرق بين أن يقال : لا مقدور للقدرة، وبين أن يقال : مقدورها منتفٍ.

[علاقة القدرة بالحدوث]

قال : واذا ثبت استحالة بقاء القدرة الحادثة، فانها يقارب حدوث مقدوراتها ولا يتقدم عليه. ولو قدرنا سبق الاعتقاد الى بقاء القدرة لما استحال تقدمها على وقوع مقدوراتها. ولذلك يجب القطع بعدم القدرة الأزلية على وقوع المقدورات.

ولما ثبت ان القدرة الحادثة لا تبقى، تَرَتَّبَ على ذلك استحالة تقدمها على المقدور؛ فانها لو تقدمت عليه لوقع المقدور مع انتفاء القدرة. وذلك مستحيل.

والحادث في حال حدوثه مقدور بالقدرة القديمة، وان كان متعلقاً للقدرة الحادثة فهو مقدور بها، واذا بقي مقدور من مقدورات الباري تعالى وهو الجوهر، اذ لا يبقى غيره من الحوادث، فلا يتصف في حال بقائه واستمرار وجوده بكونه مقدوراً إجماعاً.

وذهبت المعتزلة الى أن الحادث في حال حدوثه يستحيل ان يكون مقدوراً للقديم والمحدث وهو بمثابة الباقي المستمر، وإنما يتعلق القدرة بالمقدور في حال عدمه. وقالوا على طرد ذلك يجب تقدم الاستطاعة على المقدور، ويجوز مقارنة ذات القدرة ذات المقدور من غير ان يكون متعلقة به حالة وقوعه.

قال : والدليل على أن الحادث مقدور، وأن الاستطاعة تقارن الفعل أن نقول القدرة من الصفات المتعلقة ويستحيل تقديرها دون متعلق لها.

فاذا فرضنا قدرة متقدمة وفرضنا مقدوراً بعدها في حالتين متعاقبتين، ولا يتقرر على أصول المعتزلة تعلق القدرة بالمقدور، فانَّا إن نظرنا الى الحالة الأولى فلا يتصور فيها وقوع، وان نظرنا الى الحالة الثانية فلا تعلق للمقدور فيها.

فاذا لم يتحقق في الحالة الأولى إمكان، ولم يتقرر في الثانية اقتدار، فلا يبقى لتعلق القدرة معنىً، ويعضد ذلك بوجهين :

أحدهما : ان المقدور لا يخلو : إما أن يكون عدماً، وإما أن يكون موجوداً. ويستحيل كونه عدماً فإنه نفي محض والوجود عند المخالفين غير مقدور.

والوجه الثاني : أنهم إنما زعموا أن الحادث بمثابة الباقي في استحالة كونه مقدوراً ثم لا إمكان في الحالة الأولى من وجود القدرة. والحالة المتوقعة بعدها ليست حالة تعلق القدرة، فان شاع ذلك فليكن الثاني مقدوراً في الحالة الأولى من القدرة. ولا مخلص عن ذلك.

وقال أيضاً في الرد على القائلين بالتولُّد : القدرة الحادثة لا تتعلق إلا بقائم بمحلها. وما يقع مناسباً لمحل القدرة فلا يكون مقدوراً بها، بل يقع فعلاً للباري سبحانه وتعالى من غير اقتدار للعبد عليه. فاذا اندفع الحجر عند اعتماد معتمد عليه فاندفاعه غير مقدور للعبد عند أهل الحق.

وذهبت المعتزلة الى ان ما يقع مناسباً لمحل القدرة يجوز وقوعه متولداً عن سبب مقدور مباشر بالقدرة. ثم المتولد عندهم فعل لفاعل السبب وهو مقدور بتوسط السبب.

ومن المتولدات ما يقوم عندهم بمحل القدرة كالعلم النظري المتولد

عن النظر القائم بمحل القدرة في خبط وتفصيل طويل واختلاف فيما تولد وفيما يتولد.

قال : وليس من غرضنا التعرض لتفاصيل مذهبهم.

والدليل على ما صار اليه أهل الحق أن الذي وصفوه بكونه متولداً لا يخلو من أن يكون مقدوراً او غير مقدور، فإن كان مقدوراً كان باطلاً من وجهين :

أحدهما : أن السبب على أصلهم موجب للمسبب عند تقدير ارتفاع الموانع. فاذا كان المسبب واجباً عند وجود السبب أو بعده، فينبغي أن يستقل بوجوبه ويستغني عن مآثر القدرة فيه. ولو تخيلنا اعتقاد مذهب التولد وخطر وجود السبب، واتفاع الموانع، واعتقدنا مع ذلك انتفاء القدرة أصلاً فيوجد المسبب بوجود السبب جرياً على ما قدرناه من الاعتقادات.

والوجه الثاني : أن المسبب لو كان مقدوراً لتصور وقوعه دون تصور السبب. والدليل عليه أنه لم وقع مقدوراً للباري تعالى اذا لم ينسب العبد اليه، فانه يقع مقدوراً له تعالى من غير افتقار الى توسُّط سببٍ.

وقال الإمام فخر الدين الرازي : « احتجّ اصحابنا أنه لو صَحَّ القول بالتولد للزم وقوع الأثر الواحد بمؤثرين مستقلين بالتأثير. وهذا محال. فالقول بالتولد محال بيان الملازمة أنه اذا التصق جوهر فرد بكف رجلين ثم أن احدهما جذب الكف في حال ما دفع الآخر أيضاً كفه. فلو صح القول بالتولُّد كان الجذب مولِّداً للحركة في ذلك الجوهر الفرد، كما ان الدفع مولِّدٌ للحركة فيه. فإما أن يتولَّد من كل واحد منهما حركة على حدة، أو يتولد منهما معاً حركة واحدة، والأول باطل لأنه يقتضي حصول الجسم الواحد في الآن الواحد في الحيز الواحد مرتين وهذا غير معقول وايضاً، فعلى هذا التقدير تكون الحركتان

متماثلتين، فليس إسناد أحدهما الى الجذب والثانية الى الدفع أولى من العكس. فلزم استناد كل واحدة منهما الى الجذب والدفع، فيعود الأمر الى وقوع الأثر الواحد بمؤثرين مستقلين. ولما بطل هذا القسم ثبت أنه حصل في ذلك الجوهر الفرد حركة واحدة، وتلك الحركة الواحدة حصلت بعد الجذب وبعد الدفع. ثم كل واحدة من هاتين العلتين مستقلة باقتضاء هذا الأثر مع القول بالتولُّد. فيلزم حصول الأثر الواحد لمؤثرين مستقلين، وذلك لأن ذلك الأثر يستغني بهذا عن ذاك، وبذاك عن هذا، فلما اجتمعا عليه لزم أن يستغني كل واحد منهما عن كل واحد منهما. وهو محال.

واستدلال المعتزلة على القول بالتولد انما هو لحسن المدح والذم والثواب والعقاب. والجواب عنه في مسألة خلق الأفعال وبالله التوفيق.

وقال إمام الحرمين أيضاً في ارادة الكائنات : مذهبنا أن كل حادث مراد الله تعالى حدوثه، ولا يختص تعلُّق مشيئة الباري تعالى بصنف من الحوادث دون صنف، بل هو تعالى مريد لوقوع جميع الحوادث، خيرها وشرّها، نفعها وضرّها.

قال : ثم من ائمتنا مَنْ أطلق ذلك عامًّا ولم يطلقه تفصيلاً. فاذا سئل عن كون الكفر مراد الله تعالى لم يخصص في الجواب ذكر ما تتعلق الارادة به وإن كان يعتقده، ولكنه يجتنب إطلاقه لما فيه من إيهام الزلل، إذ قد يتوهّم كثير من الناس أن ما يريده الله يأمر به ويحرص عليه ولفظ يطلق عاماً ولا يفصِّل.

فانك تقول : العالم بما فيه لله تعالى. ولو فرض سؤال في ولد او زوجة لم يقل الولد والزوجة لله تعالى.

قال : ومَنْ حقق من أئمتنا أضاف تعلُّق الإرادة الى كل حادث معمماً ومخصصاً، مجملاً ومفصلاً، واستدلّ على صحة مذهب أهل

الحق وبطلان مذهب المعتزلة من وافقهم على نفس القدر بما لا يحتمل إيراده هذا المختصر.

ثم قال : ومما يقوي التمسك به إجماع السلف الصالحين قبل ظهور الاهواء واضطراب الآراء على كلمة غير معدودة من المجملات وهي قولهم : « ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن » وتكلم على ذلك.

[ما تمسك به أئمة أهل السنة]

ثم قال : ومما تمسَّك به أئمتنا أيضاً أن قالوا : الأفعال المحكمة دالّة على علم مَنْ يخترعها. فانما يتقرر ذلك على مذهب أهل الحق الصابرين الى أن مخترع الأفعال الرب تعالى وهو عالم بحقائقها. ومن ذهب الى أن العبد مخترع أفعاله وهو غير عالم بها فقد أخرج الأحكام عن كونه دالّاً على علم المخترع وذلك نقض الادلّة العقلية.

قلت : وقد قدّمت قَوْل صاحبه الإمام حجة الاسلام أبي حامد الغزالي، رضي الله عنه، في هذا وذكره ما يصدر من النحل والعنكبوت وسائر الحيوانات من لطيف الصناعات ما تتحير فيه عقول ذوي الألباب، فكيف انفردت هي باختراعها دون رب الأرباب ؟

قال إمام الحرمين : ومما يطيش عقولهم اتفاق العلماء قاطبة على أن المديون القادر على براءة ذمته إذ قال : والله لأقضين حق غريمي غداً ان شاء الله عز وجل. فاذا تصرم الأمد المضروب والأجل المرقوب فلا يحنث الحالف لاستثنائه مشيئة الله تعالى. وينزل ذلك منزلة ما لو قال : لأقضين حق غريمي غداً ان شاء زيد. ثم شاء زيد ولم يقضه فيحنث لا محالة.

قال : ومما يقوي إلزامهم أن يقول الرب تعالى عندكم مريد إيمان الكافرين وذلك واجب في حكمه فبينوا معاشر المعتزلة ما نسألكم

عنه، وأوضحوا الوقت الذي تقدم الإرادة فيه، والارادة حادثة عندكم، فلا يكادون يضبطون في ذلك وقتاً موقوتاً ولا يلقون لأنفسهم بيوتاً.

ثم ذكر أن المعتزلة استدلوا بظواهر من كتاب الله تعالى لم يحيطوا بفحواها، ولم يدركوا معناها منها قوله تعالى: ﴿ **ولا يرضى لعباده الكفر** ﴾[1].

قال: وفي الجواب عن هذه الآية مسلكان: **أحدهما** الجري على موجبها والتمسك بمذهب مَنْ فَصَلَ بين الرضى والارادة. **والوجه الثاني**: حمل العباد على الموفقين للإيمان الملهمين بالإيقان وهم المشرّفون بالإضافة الى الله ذكرا — وهذه الآية تجري مجرى قوله تعالى: ﴿ **عينا يشرب بها عباد الله** ﴾[2] وليس المراد جميع العباد بل المراد المصطفون.

قلت: ويؤيد الأول ما سيأتي ذكره عن زين العابدين ويؤيد الى ما سيأتي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية أنهم المخلصون.

وفي رواية أخرى عنه: أي لا أرضى لأوليائي وأهل طاعتي — هذه رواية عطاء والأولى رواية الوالي.

وقال السدّي: لا يرضى لعباده المؤمنين أن يكفروا.

قال الإمام ابو الحسن الواحدي: وهذا طريق مَنْ قال بالتخصيص في هذه الآية ومن أخذ أنها على العموم. قال: الكفر غير مرضي لله من الكافر وان كان بارادته ومعناه — وعلى هذا لا يمدحه ولا يثني عليه.

وقال بعض أئمتنا: اي لا يثيبه. قال بعضهم: أي لا يحبه.

---

(١) سورة الزمر الآية ٧

(٢) سورة الانسان الآية ٦

قال إمام الحرمين : ومما يستروحون اليه قوله تعالى : ﴿ **لو شاء الله ما أشركنا** ﴾[1]... الآية. قالوا : والدليل منها أن الرب سبحانه تعالى أخبر عنهم وبين أنهم قالوا : لو شاء الله ما اشركنا. ثم وبخهم وردّ مقالهم ولو كانوا ناطقين بحق مفصحين بصدق لما قرعوا.

قلنا : إنما استوجبوا التوبيخ لأنهم كانوا يستهزءون بالدين ويبغون ردّ دعوة الأنبياء. وكان قد قرع مسامعهم من شرائع الرسل تفويض الأمر الى الله. فلما طولبوا بالإسلام والتزام الأحكام تعللوا بما احتجوا به على النبيين. قالوا : لو شاء الله ما يشبه اما[2] لم يكن من غرضهم ذكر ما ينطوي على عقيدتهم.

والدليل على ذلك قوله تعالى في سياق الآية :

﴿ **قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظنَّ** ﴾[3]
قال : وكيف لا يكون الأمر كذلك والايمان بصفات الله فرع الايمان لله تعالى والمقرعون بالآية كفرة بالله تعالى.

قلت : وهذا الذي قاله ظاهر. وها أنا اضرب له مثلاً آخر أظهر وأخصر. وهو أن ذلك كمثل فاجر نُهي عن فجوره فقال : هذا عليَّ مقدور، مع أنه صادق في قوله هذا. ولكنه تعلل بالقدر مع مخالفته ظاهر الشرع فيوجه عليه الملام والتقريع والردع. وأرى مع هذا أن يعارضوه بقوله تعالى : ﴿ **ولو شاء الله ما أشركوا** ﴾[4].

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٠٤

(٢) كذا في الأصل

(٣) سورة الأنعام الآية ٤٨

(٤) سورة الأنعام الآية ١٠٧

فهذه الآية مما يحقق ما تقدم من تأويل الآية التي احتجوا بها وصحة معتقدنا والحمد لله. ولا وجه للاستدلال بالآية التي ذكروا مع وجود هذه الآية فان الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ **ولو شاء الله ما أشركوا** ﴾[1] بالقول الصريح المفصل الذي ليس للتأويل فيه مدخل.

رجعنا الى كلام إمام الحرمين رضي الله عنه، قال: ومما يستدلون به العوام الاستدلال بقوله تعالى: ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[2]، وهي عامة في صفتها متعرضة لقبول التخصيص عند القائلين بالعموم، مجملة عند منكر العموم. ولا يسوغ الاستدلال في القطعة بما يتعرض للاحتمال، او يتعدى للإجمال — ومذهب المعتزلة أن العموم إذا دخله التخصيص صار مجملاً في بقية المسميات. ولا خلاف ان الصبيان والمجانين مستثنون. وذلك موجب الآية تخصيصاً، وأصل العبادة التذلُّل، والطريق المعبدة هي المذلَّلة بالدَّوْس. قال: فالمراد بالآية وما خلقهم إلا ليذلوا، ثم مَنْ منع فقد أبدى تذلُّله، ومَنْ عَبَدَ فشواهد الفطرة واضحة على تذلُّله وإنْ تعرض وافترى.

قال: والحمل على ذلك أمثل من الحمل على تناقض. فان الرب تعالى علم أن معظم الخليقة سيكفرون، فيكون التقدير: وما خلقت من علمت انه يكفر إلا ليؤمن. وهذا لا وجه له.

قلت: وهذا ظاهر لأنه يصير التقدير: وما خلقت من **علمت انه** لا يؤمن إلا ليؤمن، إذ قد علم سبحانه أن الكافرين لا يؤمنون.

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٠٧.

(٢) سورة الذاريات الآية ٥٦

[ما عرضت له هذه الآية]

وأرىٰ خمسة اشياء قد عرضت لهذه الآية مانعة من عموم الاستدلال بها، بعضها ما ذكره امام الحرمين في كلامه هذا : **الأول** منها أن المفسرين اختلفوا في معنى قوله تعالى « يعبدون ». **الثاني**، أن الآية مجملة عند بعض العلماء. **الثالث**، أنه دخلها التخصيص باستثناء المذكورين. **الرابع**، أن أصل العبادة التذلل كما ذكر وعمومها على هذا الوجه ممكن لقوله تعالى : ﴿ **وان من شيءٍ إلا يسبِّح بحمدِهِ** ﴾[1]، وقوله ﷺ : «المولود يولد على الفطرة »[2] — **الخامس**، ما يئول إليه ما ذكروه في العموم من التناقض المذكور.

قلت : ومع هذه كلها ينبغي أن يعارضوا بقوله عز وجل : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس** ﴾[3]... الآية.

ووجه الاستدلال بها : أن المخلوقين لجهنم ليسوا مخلوقين للعبادة لأن المخلوقين للعبادة هم الذين سبقت لهم الحسنى بالسعادة وقد قال الله تعالى فيهم : ﴿ **أولئك عنها مبعدون** ﴾[4].

قال : ومما يستدلون به قوله تعالى : ﴿ **ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك** ﴾[5].

---

(١) سورة الاسراء الآية ٤٤

(٢) ولفظة كما في كنز العمال ٢٦١/١ رقم ١٣٠٦ و ١٣٠٧ « كل مولود يولد على الفطرة... ».
وعزاه السيوطي في الرقم الأول لعبد الرزاح والطبراني والبيهقي عن الاسود بن سريع * وفي الرقم الثاني عزاه للترمذي عن أبي هريرة.

(٣) سورة الأعراف الآية ١٧٩

(٤) سورة الأنبياء الآية ١٠١

(٥) سورة النساء الآية ٧٩.

قلنا : في الآية المتقدمة على هذه دلالة قاطعة على بطلان مذهبكم يعني قوله عز وجل ﴿ **قل كل من عند الله** ﴾[1]. وتكلَّم على ذلك.

ثم قال في آخر كلامه : على أن المعتزلة لا يقولون بظاهر الآية، يعني الآية التي احتجوا بها، إذ الخير والشر من أفعال العباد واقعان بقدرة العباد خارجان عن مقدور الله تعالى فيهما جميعاً بالعبد عندهم. انتهى كلامه.

قلت : جميع ما ذكرت عن إمام الحرمين المشهور بجودة النظر والانتقاد اختصرته وجمعته من مواضع متفرقة من كتابه الإرشاد — وقد كنت قدمت شيئاً من المعقول على ما استشهدت به من المنقول أردفناه بكلام إمام الحرمين المذكور المرتضى. وها أنا أورد شيئاً من الأدلة العقلية أيضاً، واقتصر منها على أربعة أشياء محصورة التعداد : العلم والقدرة والإرادة وخلق أفعال العباد.

فأقول : هل علم الحق سبحانه كفر الكافر قبل خلقه أم لا ؟ أَنْصِفْني وإلا اعتزل مسائلي أيها المعتزلي. فان قلت لم يعلم ذلك فقد هديته الى الجهل، تعالى الله عن ذلك، وكذبت فيما صدق أصدق القائلين : ﴿ **ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين** ﴾[2] وقوله عز وجل : ﴿ **لا يعزب عنه مثقال ذرة في السمٰوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر** ﴾[3] وقوله الكريم : ﴿ **وهو بكل شيء عليم** ﴾[4]، وغير ذلك من الآيات والذكر الحكيم التي تكذيبها كفر بالله العظيم.

وان قلتَ : علمه قلتُ : فهل قدر على منعه منه أم لا ؟ فان قلتَ

---

(١) سورة النساء الآية ٧٨

(٢) سورة الأنعام الآية ٥٩

(٣) سورة سبأ الآية ٣

(٤) سورة الأنعام الآية ١٠١

لم يقدر، فقد نَسَبْتَهُ الى العجز، تعالى الله عن ذلك، ومَثَلُكَ في ذلك مَثَلُ مَنْ هرب من الرشاس فوقع تحت الوابل، بل غرق في بحر ليس له ساحل. أعني أنك هربت مما توهَّمْتَ أنه يكون ظلماً في حقه تعالى، ووقَعْتَ فيما هو أعظم وهو نسبته اليه من الجهل والعجز. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وإن قلتَ : قدر على منعه من ذلك ولم يمنعه، فقد نَسَبْتَ الرب القدير الحكيم الخبير سبحانه الى الرضى بالقبيح الذي زعمت أنه لا ينسب الى الله تعالى. إذاً يصير مقدراً عليه مع القدرة على المنع منه، وعلى أن لا يكون شيء من القبيح في مملكته، ونَقَضْتَ أصلك، وهدَمْتَ مذهبك، بل نقَضْتَ ذلك وهدَمْتَه بما هو أعظم وأوضح وأجلى مما ليس لك عنه محيد ولا محيض أصلاً، وهو قولك بوجوب الأصلح على الله عز وعلا وتقدس على ذلك تعالى. فبالله عليك هل الأصلح عدم الالتحاد للكفار، أم التحادهم مع تخليدهم في النار، أم موتهم فيها، أم بقاؤهم على تعاقب الدهور في العذاب الشديد والويل والثبور وحرمان القصور وسائر اللّذات والسرور في دار الكرامة والنعيم المقيم، مع رضوان الله وجوار المولى الكريم والتعوُّض عن ذلك بسخط الجبار وعذابه الأليم. نسأل الله الكريم العفو والعافية من ذلك ومن جميع البلايا والمهالك لنا ولأحبابنا المسلمين آمين.

وإلى **نفي الوجوب على الله** أشرت في بعض القصائد بقولي :

وما من واجبٍ بل زاغ حمق ... وضلُّوا باعتزالٍ عن صوابِ
عليه أوجبوا أشيا ولم يبق ... إلا أن يقوموا للعقابِ
وما للعقل حكم بل لشرعٍ علا ... في منصبٍ على انتصابِ
ففي سبحان لا تعذيب الا ... ببعث الرسل في نصِّ الكتاب

ثم اقول بعد هذا : وإذا اعترفت بالحق من أنه سبحانه علم كفر الكافر قبل خلقه، قلت لك : هل أراد صدور الكفر منه أم لم يرده ؟

فان قلتَ أراده فقد حصل المراد ووافقتنا، وذلك هو المراد، ويمكن إن نقضت أصلك ولزم كون مذهبك غير صحيح بتجويزك [...][1] وارادة ما زعمت من القبيح، وأقول : إن لم يرد ذلك بل أراد منه الإيمان، فقضيت بوجود ما لم يرد وعدم ما اراد. فصار على حكمك هنا ما شاء الله لم يكن وما لم يشاء كان عكس ما اجمع عليه السلف الصالح، وصار الملك القهار على هذا مقهوراً. وحينئذٍ يكون الواقع على وفق ارادة عدوّ الله إبليس أكثر من الواقع على وفق إرادته تعالى إذ المعاصي أغلب من الطاعات لقوله تعالى : ﴿ **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم** ﴾[2] وقوله عز وجل : ﴿ **ولا تجد اكثرهم شاكرين** ﴾[3].

قلت : وعلى هذا قال الإمام حجة الإسلام ابو حامد رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس** ﴾[4] يقول : خلقنا.

وفي قوله تعالى : ﴿ **ولا يزالون مختلفين إلا مَنْ رَحِم رَبّك ولذلك خلقهم** ﴾[5] يقول : فريقين فريقاً يرحم فلا يخلف، وفريقاً لا يرحم فيخلف، وذلك قوله : ﴿ **فمنهم شقيٌّ وسعيد** ﴾[6].

وفي قوله تعالى : ﴿ **إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة** ﴾[7] قال : وهم الكفار الذين خلقهم الله للنار، وخلق النار

---

(١) فراغ في الأصل.
(٢) سورة ص الآية ٢٤
(٣) سورة الأعراف الآية ١٧
(٤) سورة الأعراف الآية ١٧٩
(٥) سورة هود الآية ١١٨
(٦) سورة هود الآية ١٠٥
(٧) سورة الشورى الآية ٤٥

لهم، فزالت عنهم الدنيا وحرمت عليهم الجنة، قال الله تعالى : ﴿ **خسر الدنيا والآخرة** ﴾[1].

وفي قوله تعالى : ﴿ **كما بدأكم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة** ﴾[2].

قال : إن الله تعالى بدأ خلق بني أدم مؤمناً وكافراً كما قال تعالى : ﴿ **هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن** ﴾[3] ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقاً مؤمناً وكافراً.

وفي قوله تعالى : ﴿ **واجعلنا للمتقين اماماً** ﴾[4] يقول : أئمة تهتدي بنا ولا تجعلنا أئمة ضلالاً لأنه قال لأهل السعادة : ﴿ **وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا** ﴾[5]، وقال لأهل الشقاوة : ﴿ **جعلناهم أئمة يدعون الى النار** ﴾[6].

وفي قوله تعالى : ﴿ **يحول بين المرء وقلبه** ﴾[7] يقول : يحول بين المؤمن وبين الكفر، ويحول بين الكافر وبين الإيمان.

وفي قوله تعالى : ﴿ **قال رب بما أغويتني** ﴾[8] أي أضللتني.

---

(١) سورة الحج الآية ١١
(٢) سورة الأعراف الآية ٢٩
(٣) سورة التغابن الآية ٢
(٤) سورة الفرقان الآية ٧٤
(٥) سورة الأنعام الآية ٧٣
(٦) سورة القصص الآية ٤١
(٧) سورة الأنفال الآية ٢٤
(٨) سورة الحجر الآية ٣٩

وفي قوله تعالى : ﴿ **فإنكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين إلا مَنْ هو صال الجحيم** ﴾[1] يقول : لا تَصْلَوْنَ أنتم ولا أُضِلُ منكم الا مَنْ قَضيتُ له أنه صال الجحيم.

وفي قوله تعالى : ﴿ **إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً** ﴾[2].

وفي قوله تعالى : ﴿ **أغفلنا قلبه عن ذكرنا** ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ **ولو شاء ربُّك لآمن مَنْ في الأرض كلهم جميعاً** ﴾[4] ونحو هذا من القرآن.

قال : إن رسول الله ﷺ كان يَحْرُصُ على ان يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبر الله تعالى أنه لا يؤمن إلا مَنْ سبق له من الله السعادة في الذكر الأول، ولا يضلُّ إلا مَنْ يسبق له من الله الشقاوة في الذكر الأول. ثم قال الله لنبيه ﷺ : ﴿ **لعلك بَاخِعُ نفسك أن لا يكونوا مؤمنين إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية** ﴾[5].

وفي قوله تعالى : ﴿ **أمرنا مترفيها** ﴾[6] يقول : سلطنا شرارها فعصوا فيها، فاذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب. وهو قوله تعالى : ﴿ **وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها** ﴾[7].وفي رواية أخرىٰ عنه اكبرنا فساقها.

وفي قوله تعالى : ﴿ **أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه** ﴾[8] قال :

---

(١) سورة الصافات الآيات ١٦٣

(٢) سورة يس الآية ٨

(٣) سورة الكهف الآية ٢٨

(٤) سورة يونس الآية ٩٩

(٥) سورة الكهف الآية ٦

(٦) سورة الإسراء الآية ١٦

(٧) سورة الأنعام الآية ١٢٣

(٨) سورة المائدة الآية ٧٤

قد دعا الله تعالى الى التوبة ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه ـــ قال تعالى : ﴿ **ثم تاب عليهم ليتوبوا** ﴾[1].

وفي قوله تعالى : ﴿ **قل كل من عند الله** ﴾[2] يقول : الحسنة والسيئة من عند الله؛ اما الحسنة فأنعم الله بها عليك، وأما السيئة فابتلاء الله بها.

وفي قوله تعالى : ﴿ **إن تكفروا فان الله غني عنكم** ﴾[3] يعني الكفار ﴿ **الذين لم يُرِدِ اللهُ أن يُطَهِّرَ قلوبَهُمْ** ﴾[4] فيقولوا لا إله إلا الله.

ثم قال : ﴿ **ولا يرضى لعباده الكفر** ﴾[5] وهم عباده المخلصون الذين قال تعالى : ﴿ **ان عبادي ليس لك عليهم سلطان** ﴾[6]. فاكرمهم بشهادة أن لا اله إلا الله وحسبها إليهم.

وفي قوله تعالى : ﴿ **وأما ثمود فَهَدَيْنَاهُمْ** ﴾[7] يقول : بينّا لهم.

وفي قوله تعالى : ﴿ **وقضىٰ ربك ألا تعبدوا إلّا اياه** ﴾[8] يقول أَمَرَ.

وفي قوله تعالى : ﴿ **وأضله الله علىٰ علم** ﴾[9] يقول : أضله في سابق علمه.

---

(١) سورة التوبة الآية ١١٨
(٢) سورة النساء الآية ٧٨
(٣) سورة الزمر الآية ٧
(٤) سورة المائدة الآية ٤١
(٥) سورة الزمر الآية ٧
(٦) سورة الحجر الآية ٤٢
(٧) سورة فصلت الآية ١٧
(٨) سورة الإسراء الآية ٢٣
(٩) سورة الجاثية الآية ٢٣

وفي قوله تعالى : ﴿ **ونبلوكم بالشر والخير فتنةً** ﴾[1]، يقـول : نبتليكم بالشدة والرخا، والصحة والسقم، والغنى والفقـر، والحـلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدىٰ والضلالة.

وفي قوله تعالى : ﴿ **ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً** ﴾[2]، يقول : من يرد الله ضلالته لم يغن عنه شيئاً.

كل هذا المذكور رواه الإمام البيهقي بسنده كما ذكرنا.

* وروى الإمام الحاكم[3] أبو عبدالله من حديث عطاء بن السائب عن مقسم عنه قال : « أول ما خلق الله تعالى القلم خلقه من هجاء قبل الالف واللام فتصور قلماً من نور فقيل له : أَجْرِ في اللوح. قال : يا رب بماذا ؟ قال : لما يكون الى يوم القيامة. فلما خلق الله الخلق وكلَّ لهم حفظة يحفظون عليهم أعمالهم، فاذا قامت القيامة وعرضت عليهم أعمالهم وقيل : ﴿ **هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنَّا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون** ﴾[4] عرض بالكتابين فكانا سواءً.

* قال ابن عباس : « ألستم عرباً هل يكون النسخة إلا من كتاب ». رواه الحاكم عنه كما ذكرنا وقال صحيح ــ وعن طاوس قال كنت عند ابن عباس ومعنا رجل من القدرية فقلت : إن ناساً يقولون لا قَدَرَ. قال : أَوَفي القوم أحد منهم ؟ قلت : لو كان ما كنت تصنع به. قال : لو كان فيهم أحد منهم لجذبت برأسه ثم قرأت عليه أنه

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٣٥

(٢) سورة المائدة الآية ٤١

(٣) رواه الحاكم في المستدرك ٤٥٤/٢ عن عطاء بن السائب عن ابن عباس، وقال : صحيح.

(٤) سورة الجاثية الآية ٢٩

كذا وكذا ﴿ **وقضينا الى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدنّ في الأرض مرتين** ﴾[1] الآية. رواه الحاكم من حديث الأعمش عن عبدالله بن ميسرة عن طاوس وقال على شرط البخاري ومسلم ورواه البيهقي أيضاً بسنده الصحيح ــ قال طاوس : فتمنيت ان كل قدري كان عندنا.

* ومن حديث عكرمة عنه قال : « كان الهدهد يدل سليمان على الماء. فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : ينصب له الفخّ يلقي عليه التراب ».

فقال : اذا جاء القضا ذهب البصر.

قلت : وفي نحو هذا مثل يذكر : « اذا نزل القدر عمي البصر ولم ينفع الحذر ».

* وفي حديث سعيد بن جبير عنه : « إن القدر اذا جاء حال دون البصر » قال الحاكم على شرطهما.

* وروى البيهقي أيضاً كل هذه المذكورات وغيرها مما يطول ذكره وجميع هذا المذكور عن **ابن عباس** من روايات الأئمة المذكورين هو من تفسيره.

* وأما ما رواه عن رسول الله ﷺ فقد قدمت عنه ما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما من قوله ﷺ في أولاد المشركين لما سئل عنهم : « الله أعلم إذ خلقهم بما كانوا عاملين »[2].

* وفي صحيح مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن ابن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً ولو عاش لأزهى أبويه طغياناً وكفراً ». ومما روى ابن عباس

---

(١) سورة الاسراء الآية ٤

(٢) انظر كنز العمال ٤٩٩/١٤ الحديث رقم ٣٩٤١٥ و ٣٩٤١٦

أيضاً خطبة النبي لضماد : « من يهدي الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادي له ».

* وروي أيضاً حديث: « واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتب الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف » الحديث ــ رواه الترمذي وصححه ومن رواية غير الترمذي : واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك واما أصابك لم يكن ليخطئك.

* وما رواه البيهقي بسنده الى ابن الجوزاء عنه عن النبي ﷺ عن جبريل عليه السلام عن الله تبارك وتعالى قال يقول الله عز وجل : « يا ابن آدم أنا خلقت الخير والشر فطوبى لعبد قدّرتُ على يديه الخير ــ وويل لعبد قدّرت الشر على يديه ».

* وروى الطبري بسنده الى عطاء بن أبي رباح قال : «كنت عند ابن عباس فجاءَه رجل فقال : أرأيت من مدني عن الهدى وأوردني دار الضلال والردى لا تراه قد ظلمني ؟ قال : إن كان الهدى شمالك عنده فقد ظلمك، وان كان الهدى هو له يؤتيه من يشاء فلم يظلمك، ولا تجالسني ».

* وروى الطبري بسنده الصحيح الى ميمون بن مهران قال : قال لي ابن عباس رضي الله عنهما : احفظ عني ثلاثاً : إياك والنظر في البحور فانها تدعو الى الكهانة. وإياك والقدر فانه يدعو الى الزندقة. وإياك وشتم أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فكبّك الله في النار على وجهك. وغير ذلك مما روي عنه حذفته إيثاراً للاختصار والاكتفاء لما فيه كفاية لأهل الاعتبار. ومنهم عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قد يقدم قوله في الحديث الصحيح : اذا لقيت أولئك فأخبرهم الى أني بريء منهم وأنهم برءاء مني، والذي كلف به عبدالله بن عمر

لو ان لأحدهم مثل أُحُد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر — الحديث.

* وفيه قوله ﷺ : « ويؤمن بالقدر خيره وشره ».

* وروى الطبري بسنده الى نافع أن ابن عمر قال له رجل : ان قوماً يتكلمون في القدر. فقال : أولئك يصيرون الى أن يكونوا مجوس هذه الأمة. فمن زعم أن مع الله تعالى قاضياً أو قادراً أو رازقاً أو قال أو مالكاً لنفسه ضرًّا ونفعاً أو حياة أو نشوراً، لعنه الله، وأخرس لسانه، وأعمى بصره، وجعل حياته وقيامه هباء وقطع له الأسباب، وكبه على وجهه في النار. ومنهم عبدالله بن مسعود رضي الله عنه — وقد قدمت عنه حديث الصحيحين وغيرهما الذي قال فيه : فوالذي لا اله غيره إن احدكم ليعمل بعمل اهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب الحديث الى آخره.

* وقوله في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم : « الشقي من شقي في بطن امه ».

* وفي المستدرك على الصحيحين عن عبدالله قال : والذي لا إله غيره ما في الأرض نفس إلا الموت خير لها إن كان مؤمناً فان الله تعالى يقول : ﴿ **لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات** ﴾[1] وان كان فاجراً فان الله تعالىٰ يقول : ﴿ **إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً** ﴾[2] رواه الحاكم[3]، وقال على شرطهما.

* ومنهم **عبدالله بن عمر** رضي الله عنهما، وروى الحاكم[4] ابو

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٨
(٢) سورة آل عمران الآية ١٧٨
(٣) رواه الحاكم في المستدرك ٢٩٨/٢ على الصحيحين وعزاه للبخاري ومسلم.
(٤) المستدرك للحاكم ٣٠/١ كتب الايمان.

عبدالله في المستدرك على الصحيحين ــ عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله خلق خلقه في ظلمة وألقى عليهم من نوره فمَنْ أصابه من ذلك النور يومئذٍ شيء اهتدى ومَنْ اخطأه ضل فلذلك أقول جف القلم على علم الله ». قال الحاكم على شرطهما ولا علة له. ورواه البيهقي[1] عن الحاكم وأخرجه أبو حاتم بن حِبّال[2] بكسر الحاء المهملة وتشديد الموحدة. قال الامام البيهقي : ألقى عليه من نوره أي فمن علم الله إيمانه وأمر القلم فجرى به وكتب من السعداء أصابه من ذلك النور فاهتدى. ومن علم الله كفره وأمر القلم فجرى به وكتب من الأشقيا أخطأه ذلك النور. قال الله تعالى : ﴿ **أَوَ مَنْ كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها** ﴾[3] وقال تعالى: ﴿ **الله وليُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور** ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ **وأضله الله على علم** ﴾[5].

* ومنهم **عبدالله بن الزبير** رضي الله عنهما. روى الإمام مالك رضي الله عنه في الموطأ عن عمرو بن دينار قال : سمعت عبدالله ابن الزبير يقول في خطبته : « إن الله هو الهادي والفاتر ».

* **ومنهم عمران بن حصين** رضي الله عنه. روى البخاري ومسلم عنه قال : قيل يا رسول الله علم أهل الجنة من أهل النار. قال :

---

(١) انظر السنن الكبرى للبيهقي ٤/٩، ثم قال البيهقي : قال الشافعي : ثم أبان جل ثناؤه أن خيرته من خلقه انبياؤه فقال: كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، فجعل نبينا ﷺ من أصفيائه دون عباده بالأمانة على وحيه والقيام بحجته فيهم. فيهم.

(٢) كذا في المطبوعة الهندية ولعله: ابن حبّان.

(٣) سورة الأنعام الآية ١٢٢

(٤) سورة البقرة الآية ٢٥٧

(٥) سورة الجاثية الآية ٢٣

نعم. قيل : ففيم يعمل العاملون قال : « كل ميسر لما خلق له ». قلت : وقد قدمت عنه نحواً من هذا ــ من حديث البخاري[1].

* وروى[2] البيهقي بسنده الصحيح الى ابن الأسود الديلمي قال : قلت لعمران بن حصين :

إني جلست مجلساً ذكروا فيه القدر. فقال عمران : الله الذي لا إله إلا هو لو أن الله عذب اهل السموات والأرض عذبهم وهو غير ظالم حين يعذبهم ــ ولو رحمهم كانت رحمته اوسع لهم وسنقدم المدينة فنسأل ابن مسعود وأبيّ بن كعب فسألهما فقالا مثل ذلك. ورواه الطبري بسند صحيح عنه وزاد فيه : « ولو أن لرجلٍ مثل أُحُد ذهباً ينفقه في سبيل الله لا يؤمن بالقدر خيره وشره لا يقبل منه ».

* ومنهم **عمار بن ياسر** رضي الله عنه. روى عبدالله بن المبارك بسنده عنه قال : قال موسى : يا رب خلقت خلقاً خلقهم للنار فأوحى الله اليه أن ازرع زرعاً فزرعه وسقاه وقام عليه حتى حصده وداسه ــ قال : ما فعل زرعك ؟ قال : رفعته. قال : ما بركت منه ؟ قال : ما لا خير فيه وقال : فإني لا أدخل النار إلا ما لا خير فيه.

* ومنهم **ابو هريرة** رضي الله عنه. روى الامام أحمد بسنده الى عمار مولى بني هاشم قال : سألت ابا هريرة عن القدر فقال : كيف بآخر سورة القمر ؟ وقد قدمت عنه أحاديث صحيحة في القدر من ذلك قوله ﷺ : « كتب على ابن آدم حظه من الزنا »، حديث البخاري؛ وقوله ﷺ قال : « قدر الله وما شاء فعل » حديث مسلم وغير ذلك.

* ومنهم **أبو موسى الأشعري** رضي الله عنه. روى الحافظ ابن حبان عنه عن النبي ﷺ قال : «خلق الله آدم من أديم الأرض كلها

---

(١) وانظر صحيح مسلم ٢٠٤١/٤، كتاب القدر، الباب الأول، الحديث رقم ٩ ــ ٢٦٤٩

(٢) وانظر نحوه في الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٢١/٨، الحديث رقم ٦١٤٩

فخرجت ذريته على حسب ذلك فمنهم الأسود والأبيض والأحمر والأصفر ومنهم بين ذلك، ومنهم السهل ومنهم الحزن والخبيث والطيب. وروى نحوه أبو داوُد والترمذي وصحّحه ولفظه : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض الحديث »[1].

* وروى ابن حبان أيضاً في صحيحه عنه ﷺ انه قال : « خلق الله آدم ثم أخذ الخلق من ظهره فقال : هؤلاء في الجنة ولا أُبالي وهؤلاء في النار ولا أُبالي ـــ فقال قائل : يا رسول الله فعلى ماذا العمل ؟ قال : على مواقع القدر »[2]. وروى نحوه أبو داوُد والترمذي والحاكم وقال على شرطهما ولفظه : ان الله خلق آدم ثم مسح على ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية. فقال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون. ثم مسح ظهر فاستخرج منه ذرية، فقال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون »[3] الحديث.

ومنهم **سلمان الفارسي** رضي الله عنه. روى البيهقي بسنده الصحيح الى حجاج الأزدي قال : سألنا سلمان : ما الإيمان بالقدر ؟ قال أن تعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه. وروى الطبري عنه أنه قال : إن الله تعالى لما خلق آدم مسح ظهره فاخرج منه ما هو ذاري الى يوم القيامة. وكتب الآجال والأعمال والأرزاق والشقاوة والسعادة.

---

(١) انظر سنن الترمذي ٢٠٤/٥، كتاب التفسير، باب ومن سورة البقرة، الحديث رقم ٢٩٥٥. قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح.

(٢) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٤/٨، الحديث رقم ٦١٣٣ ـــ ترتيب الأمين علاء الدين علي بن بلبان الفارسي توفي ٧٣٩ هـ.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢٧/١، ٥٤٤/٢، والترمذي في سننه ٢٦٦/٥، كتاب التفسير، باب : ومن سورة الأعراف، الحديث رقم ٣٠٧٥

* ومنهم **أبو الدرداء** رضي الله عنه. روى البيهقي عنه بسند حسن أنه قال: كل يعمل في ثواب أعدَّ له.

قلت: هكذا هو في الأصل المنقول منه ولعله في ثواب أو عقاب أعد له، والله أعلم.

* ومنهم **أبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وحنيفة بن النعمان، وعمرو ابن العاص، وعائشة بنت أبي بكر** رضي الله عنهم أجمعين. روى الحافظ أبو حاتم بن حبان[1] بسنده الصحيح الى ابن الديلمي قال: أتيت أبي بن كعب فقلت له: وقع في نفسي شيء من القدر فحدثني بشيء لعل الله يذهبه من قلبي. قال: لو أن الله عذَّب أهل سماواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم، ولو انفقت مثل أُحد في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لدخلت النار. قال: أتيت عبدالله بن مسعود فقال مثل ذلك. ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثني عن رسول الله ﷺ مثل ذلك.

وروى البيهقي بسنده الى زيد بن أسلم قال: قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص: لقد عجبت لك في ذهنك وعقلك كيف لم يكن من المهاجرين الأولين — فقال له عمرو: وما أعجبك يا عمر من رجل قلبه بيد غيره لا يستقيم، أو قال لا يستطيع، أو قال لا يستطيع التخلص منه إلا الىٰ ما اراد الذي بيده؟ فقال عمر: صدقت.

وروى الحاكم والطبري بسنديهما عن عمرو بن العاص قال: عجبت من الرجل يفرُّ من القدر وهو بواقعه، ومن الرجل يرى القناة في عين

---

(١) الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٢/٥٥

أخيه ويدع الجذع في عينيه. وقد قدمت عنه أيضاً حديثين في القدر رواهما الترمذي.

وروى البيهقي بسند صحيح الىٰ خشمة عن عطية قال : دخلت وأنا مسروق علىٰ عائشة رضي الله عنها فذكر ـــ وأقول عبدالله يعني ابن مسعود : من أحب لقاء الله أحب الله تعالى لقاءه. ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه. **قال** رحمه الله: على ابن أُم عبد حدثكم أول حديث لم تسألوه عن آخره أن الله اذا أراد العبد خيراً قيَّض له قبل موته بعام ملكاً يسدده وينسره حتى يموت وهو خير ما كان يقول الناس مات فلان وهو خير ما كان، فاذا احتضر ورأى ثوابه من الجنة جعل يودع نفسه. وود لو خرجت قبل ذلك حين أحب لقا الله وأحب الله لقاه. وأن الله إذا اراد بعبد شرًّا قيَّض له شيطاناً قبل موته بعام يفتنه ويصدُّه ويضلُّه حتى يموت حين يموت وهو شر ما كان ويقول للناس مات فلان وهو شر ما كان، فاذا احتضر ورأى ما أُعد له في النار جعل يتبلغ نفسه كراهة للخروج. فعند ذلك يبغض لقاء الله والله للقائه أبغض.

وروى البيهقي أيضاً عنهما أنه ذكر لهما خروجهما فقالت : كان يقدر. **قلت** : يعني خروجها الى البصرة حتى جرى يوم الجمل ما جرى.

وروى الطبري بسنده الى هشام بن عروة عن عائشة أن العبد ليعمل الزمان بعمل أهل الجنة وأنه عند الله مكتوب من أهل النار، الحديث. ورواه ابن حاتم بن حبان[1] في صحيحه ولفظه عن عائشة: أن النبي ﷺ قال: «ان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة وإنه لمكتوب في الكتاب أنه من أهل النار فاذا كان قبل موته بحول يعمل بعمل أهل النار فيدخل

(١) الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١/٢٨٠ رقم ٣٤٧

النار. وإن كان الرجل ليعمل بعمل أهل النار وإنه مكتوب في الكتاب أنه من اهل الجنة، فاذا كان قبل موته بحول فعمل بعمل أهل الجنة فمات فدخل الجنة». اللهم إنَّا نسألك حسن الخاتمة مع العفو والعافية في الدنيا والآخرة لنا ولأحبابنا والمسلمين آمين.

قلت: فهذا ما اقتصرت على ذكره عن هؤلاء السادة المذكورين الذين اقتصرت من سادات الصحابة عليهم ــ وقد قدمت أن أحاديث القدر رواها فوق ثلاثين صحابياً.

ومن التابعين **زين العابدين علي بن الحسين** رضوان الله عليه وعلىٰ آبائه.

روى الطبري بسنده أن رجلاً من البصرة جاء اليه. فقال له: يا سيدي إني وافد أهل البصرة إليك. قال: القدر قد فنشأ بها وارتدَّ اكثر الناس. فقال له: سل فقال: للخير. فقال: اكتب: علم وقضا وقدر وشا وأراد وأجب ــ فقال: الشر. فقال: اكتب: علم وقضا وقدر وساء وأراد ولم يرض ولم يجب. فرجع الى البصرة فقرأ على الناس ما كتب فرجع أكثرهم.

وروي عنه أقوال أخرى غليظة في تكفير أصحاب القدر رواها الإمام البيهقي وغيره بأسانيدهم.

قلت: وهذا صريح من زين العابدين في التفريق بين الإرادة والرضا. وهو موافق لما قدمته من قول بعض أئِمتنا ــ ومهم **عمر بن عبد العزيز** رضي الله عنه.

روى الإمام البيهقي بسنده الى الإمام مالك، قال: إن عمر بن عبد العزيز كان حكيماً يقول: لو اراد الله أن يُعْصَى ما خلق إبليس.

قلت: وقد ذكر الإمام الثعالبي رواية أن آدم عليه السلام التقى بإبليس في الأرض فلامه على صنيعه وقال: يا ملعون أنت الذي أخللت بي

وغررتني وأخرجتني من الجنة وفعلت وفعلت. قال : فبكى إبليس وقال: يا آدم أنا فعلت بك ما تقول وأنزلتك هذه المنزلة فمن فعل ما أنا فيه وأحلني هذه المنزلة؟».

رجعنا الى كلام عمر بن عبد العزيز وكان يقول: إن في كتاب الله لهؤلاء القدرية علماً بيِّناً علمه من علمه وجهله من جهله قوله تعالى: ﴿ **فانكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين الا من هو صال الجحيم** ﴾[1]

وروى سعيد بن منصور في تفسيره قال: حدثنا عمرو بن دينار قال: خرجت وافداً الىٰ عمر بن عبد العزيز في نفر من أهل الكوفة وكان معنا صاحب لنا يتكلم في القدر فسألنا عمر بن عبد العزيز حوائجنا ثم ذكرنا له القدر. فقال: «لو اراد الله ان لا يُعْصى ما خلق إبليس». ثم قال : قد بيَّن أنه ذلك في كتابه : ﴿ **فانكم وما تعبدون** ﴾ الآية. فرجع صاحبنا ذلك عن القدر. ورواه الطبري بسنده الى عمر ابن ذر وزاد : لو أن الله تعالى كلف العباد على قدر عظمته لما قامت لذلك سماء الأرض ولا جبل ولا شيء من الأشياء ولكنه أخذ منهم اليسير. ولو أراد وأحب أن لا يعصى لم يخلق إبليس راس المعصية. قال بعض الأئمة المتأخرين : رحمة الله على عمر لقد أتانا أحسن دليل واخصر. ولهذا قال مالك إنه كان حكيماً.

وروى عنه سعيد بن منصور بسنده أنه قال : يا أيها الناس اتقوا الله من أحسن فليحمد الله، ومن أساء فليستغفر الله، فإنه الله لا بدّ لأقوام أن يعملوا أعمالاً كتبها الله عليهم ووضعها في ركابهم.

وقال أيضاً فيما رواه أبو داوُد من رواية سفيان الثوري وغيره عنه : ما اعلم الناس وحدث الناس من محدثة ولا ابتدعوا من بدعة هي

---

(١) سورة الصافات الآية ١٦١

أبين أمراً ولا أبت أمراً من الأقدار بالقدر. لقد كان ذكره في الجاهلية الجهلاء يتكلمون به في كلامهم وفي شعرهم يعزون به أنفسهم على ما فاتهم. ثم لم يزده الإسلام إلا شدة. ولقد ذكره رسول الله ﷺ في غير حديث ولا حديثين قد سمعه منه المسلمون، فتكلموا به في حياته وبعد وفاته يقيناً وتسليماً لربهم عز وجل، وتضعيفاً لأنفسهم أن يكون شيء لم يحط به علمه، ولم يخصه كتابه، ولم يمض فيه قدرته، وإنه لمع ذلك في محكم كتابه لمنه اقتبسوه ولمنه تعلموه ولئن قلتم أنزل الله كذا وثم قال كذا لقد قرءوا منه ما قرأتم، وعلموا من تأويله ما جهلتم، وقالوا بعد ذلك كله بكتاب، وقدروا ما يقدر يكن وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا يملك لأنفسنا نفعاً ولا ضراً. ثم رغبوا وبعد ذلك ذهبوا.

روى الإمام الطبري بسنده الصحيح الى الإمام الأوزاعي قال : « كتب عمر بن عبد العزيز الى ابن له كتاباً فكان فيما كتب : إني اسأل الله تعالى الذي بيده القلوب يضع فيها ما يشاء من هدىً وضلال ».

وروى الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه بسنده عنه : انه دعي غيلان لشيء بلغه عن القدر. فقال : يا غيلان ما هذا الذي بلغني عنك ؟ قال : يكذب علي. قال :ما تقول في العلم ؟ قال : هذا العلم. قال : اذهب الآن فقل ما شئت يا غيلان انك إن قررت بالعلم خصمت، وإن جحدته كفرت. وإنك إن تقربه فتخصم خيرٌ لك من أن تجحده فتكفر. ثم قال : اقرأ [يس] قال : نعم. فقرأ [يس] الى قوله تعالى ﴿ **لا يؤمنون** ﴾ قال : كيف ترى قال كأني لم أقرأ هذه الآيات قط، إني أعاهد الله أن لا اتكلم في شيء مما كنت أتكلم فيه ابداً. قال : اذهب. فلمّا ولّى قال : اللهم إن كان كاذباً فأَذِقْهُ حرَّ السلاح. فلم يتكلم في زمن عمر. فلما كان زمن يزيد بن عبد الملك تكلم. فلما ولي هشام أرسل اليه، وقال : أليس قد كنت عاهدت الله لعمر بن

عبد العزيز أن لا تتكلم في شيء من هذا أبداً ؟ قال : أقلني، فوالله لا أعود. قال : لا . قال : لا أقالني الله إن اقتلك أتعرف فاتحة الكتاب ؟ قال : نعم. قال : اقرأ فقرأ : ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ الى ﴿ **اياك نعبد وإياك نستعين** ﴾[1] قال: قف عليّ ما استعنته على أمر بيده لا يستطيعه او على امر بيدك اذهبوا فاقطعوا بيديه ورجليه واضربوا عنقه واصلبوه. قال الأئمة : هذا الحديث إسناده صحيح.

وقد روى العلماء عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إثبات القدر والايمان به وتضليل منكريه والتغليظ على القدرية ما يطول ذكره من ذلك ما روى الإمام البيهقي بسنده عنه أن اصحاب القدر يستتابون؛ فان تابوا وإلا نفوا من ديار المسلمين.

ومن التابعين أيضاً **الحسن البصري** رضي الله عنه. **روى** البيهقي بسنده الصحيح الى حميد قال قدم الحسن مكة فكلمني فقهاء مكة أن أكلمه فيجلس لهم يوماً فكلمته فقال : نعم. فاجتمعوا وهو على سرير. فقال له رجل : يا أبا سعيد من خلق الشيطان قال : سبحان الله ﴿ **وهل من خالق غير الله** ﴾[2] خلق الشيطان وخلق الخير وخلق الشر.

وروى أيضاً بسنده الصحيح الى حماد بن زيد عن خالد قال : قلت للحسن : يا أبا سعيد آدم خلق للأرض أم للسماء ؟ فقال : خلق للأرض. فقلت : أرأيت لو انه استعصم فلم يأكل من الشجرة. قال : لم يكن له بد من أن يأكل منها لأنه خلق للأرض.

وروى أيضاً بسنده الصحيح الى حميد قال : قرأت القرآن كله

---

(١) سورة الفاتحة الآيات ٢ ــ ٥.

(٢) سورة فاطر الآية ٣

على الحسن ففسره على الإثبات فسألته عن قوله تعالى : ﴿ **كذلك سلكناه في قلوب المجرمين** ﴾[1] قال : الشرك بالله سلكه في قلوبهم.

وسألته عن قوله تعالى : ﴿ **ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون** ﴾[2] قال : أعمال سيعملونها.

وسألته عن قوله تعالى : ﴿ **ما انتم عليه بفاتنين الا من هو صال الجحيم** ﴾[3].

وروى أيضاً بسنده الصحيح الى خالد عنه في قوله تعالى ﴿ **ولذلك خلقهم** ﴾[4] قال : خلق هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار.

وبسنده الصحيح الى الأشهب عنه في قوله تعالى : ﴿ **وحيل بينهم وبين ما يشتهون** ﴾[5] قال بينهم وبين الإيمان...

وبسنده الصحيح الى ابي مروان مولى هند بنت المهلب قال : دعا معبد الى القدر علانية فما كان أحد أشد عليه في التفسير والرواية والكلام من الحسين. فغبت ثم قدمت فألقى معبداً فقال لي : أما شعرت أن الشيخ وافقني يعني الحسن، فاصنعوا بعد ما شئتم فأتينه فقلت : يا أبا سعيد قول الله تعالى : ﴿ **تبت يد ابي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب** ﴾[6] كان في أم الكتاب قبل أن يخلق الله عز وجل أبا لهب. فقال : سبحان الله ما شأنك. نعم والله أن يخلق أبا أبيه. فقلت : فهل كان أبو لهب يستطيع ان

---

(١) سورة الشعراء الآية ٢٠٠
(٢) سورة المؤمنون الآية ٦٣
(٣) سورة الصافات الآية ١٦٢
(٤) سورة هود الآية ١١٩
(٥) سورة سبأ الآية ٥٤
(٦) سورة المسد الآيات ١ — ٣

يؤمن حتى لا يصلي هذه النار ؟ قال : لا والله ما كان يستطيع. فقلت : أحمد الله، هذا الذي كنت عهدتك عليه أن الذي دعاني الى ما سألتك أن معبداً الجهني أخبرني أنك قد وافقته. قال : كذب لكع كذب لكع. قلت : وهكذا بلغني عن بعض المبتدعة أنهم يدعون بطريق البهت والافتراء أن الحسن البصري على عقيدتهم حتى ادَّعوا ذلك ايضاً في الإمام أبي حامد الغزالي. بل بلغني أن بعضهم ادّعى ذلك في الإمام الشافعي وغيره من العلماء الأجلاء، ومن كبار الأولياء من أئمة أهل السنة وصلحائهم يدلِّسون بذلك على الجهال ليستميلوا العوام [...][1] بالملاح أهل العلم والصلاح، من أجلاء أهل السنة وأئمتهم بمجرد التمويه والنهب الصريح، والاختلاف والافتراء القبيح الذي يكذبهم به ضرورة حسن السمع والبصر، كما يكذب منكر وجود الشمس والقمر. وما مثالهم فيما ادعوه من ذلك إلا كمثال قوم لا يزال بعض الملوك يدهمهم بعساكره ويقابلهم ويهزمهم طول دهره، ويجلب عليهم بخيله ورجله، ويفتك فيهم بأسره وقيله لسوء سيرتهم وقبح طريقهم، حتى أفناهم ومن بلادهم نفاهم. فلما مات ادَّعوا انه لهم موافق، وبحسن سيرتهم وابق ولطريقهم سالك وشاكر ومكذبين في ذلك جميع العساكر الذي لطريقته يتبعون، وبظعنه في طريقهم دائماً يسمعون، وبظعانه فيهم طول الدهر يجتمعون. فإن كل من ادَّعوا من أهل السنة أنه منهم ليتكثروا به ويزينوا مذهبهم بكونه بزعمهم داخلاً فيه معهم تكذبهم تصانيفه، وسيرته، وقوله، وفعله، وعلمه، وعمله، وظاهره، وباطنه، وانكاره عليهم وطعنه فيهم، لنفيره عنهم ومخالفته لهم ومخاصمته معهم ومحاربتهم إياهم، وغير ذلك مما امتلأ به الوجود من كثرة الشهود، وامتنع فيه الجحود كما امتنع جحود المعاين المشهود.

---

(١) كلمة غير واضحة وصورتها : تنزيتهم.

وهكذا ادَّعوا أن اهل البيت رضوان الله عليهم يعتقدون معتقدهم وقد قدمت عن عليّ وذريته وابن عباس رضي الله عنهم من الأحاديث الصحيحة في البخاري ومسلم وغيرهما ما يكذبهم.

وقد روى الطبري بسنده أن رجلاً من الشيعة سأل جعفر بن محمد الصادق رضوان الله عليه عن القدر، فقال له : اكتب أن الله تعالى لا يطاع قهراً، وأن الله لا يُعصى قهراً، فاذا أراد الطاعة كانت، واذا أراد المعصية كانت؛ فان عذب فبحق، وإن عفى فبالفضل أو قال فيفضل.

رجعنا الى حديث الحسن البصري الذي ادَّعوا أنه منهم — روى أئمتنا عنه بسند صحيح أنه قال : من كذب بالقدر فقد كذب بالقرآن.

وروى الحاكم بسنده الى ابي يحيى قال سمعت الحسن وأتاه رجل فقال يزعم ان من قتل مظلوماً فقد قتل في غير أجله. فقال : من أكل بقية رزقه بل قتل في أجله.

قلت جميع هذا الكلام من قوله يزعم الى قوله كلام الحسن وهو ظاهر. وانما نبهت عليه لئلا يتوهم مَنْ ليس له معرفة بمذهب أهل السنة وأهل البدعة غير ذلك. وتقدير الكلام : أتاه رجل فقال له الحسن : يزعم، وانما أعاد قوله، فقال تأكيداً وإلزاماً كأنه قال : فان كان كما يقول فمن أكل بقية رزقه.

وقال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه حدثنا إسماعيل عن منصور ابن عبد الرحمن قال : قلت للحسن قوله عز وجل : ﴿ **ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها** ﴾[1] قال : سبحان الله، ومن يشك في هذا كل مصيبة بين السماء والأرض في كتاب الله قبل أن يبرأ النسمة.

---

(١) سورة الحديد الآية ٢٢.

وروى الطبري بسنده عنه أنه قال : من كذب بالقدر فقد كذب بالاسلام.

* **ومنهم سعيد بن المسيب** رضي الله عنه ــ روى البيهقي عن عمرو بن شعيب قال : كنت عند سعيد بن المسيب رضي الله عنه إذا جاءه رجل، فقال : يا ابا محمد إن ناساً يقولون قدر الله كل شيء ما خلا الأعمال. فغضب سعيد غضباً لم أره غضب مثله قط حتى هم بالقيام. ثم قال : فعلوها فعلوها، ويحهم ويحهم، لو يعلمون. أما إني سمعت فيهم حديثاً كفاهم به شراً. فقلت : وما ذاك يا ابا محمد يرحمك الله. فقال : حدثني رافع بن خديج عن النبي ﷺ أنه قال : « سيكون في امتي أقوام يكفرون بالله وبالقرآن وهم لا يشعرون ». فقلت : يا رسول الله كيف يقولون ؟ قال : « يقرون ببعض القدر ويكفرون ببعض، يقولون الخير من الله والشر من الشيطان » الحديث.

* **ومنهم سالم بن عبدالله** رضي الله عنه. روى البيهقي بسنده الى سفين عن عمر بن محمد قال : جاء رجل الى سالم بن عبدالله، فقال : أرأيت رجلاً زنى قال يستغفر الله. قال : كتبه الله عليه. قال : نعم. قال : فيعذبه وقد كتبه عليه. فأخذ كفاً من حصا فحصبه.

* **ومنهم عطاء بن أبي رباح** رضي الله عنه. **روى** الحاكم بسنده الى عبد الواحد بن سليم، قال : سألت عطاء فقلت : إن ناساً من أهل البصرة يقولون في القدر. قال : تقرأ القرآن ؟ قلت : نعم. قال : اقرأ الزخرف. فقرأت ﴿ **حم والكتاب المبين** ﴾[1] الى قوله تعالى : ﴿ **وإنه في أم الكتاب لدينا لعليٌّ حكيم** ﴾[1] قال : أتدري ما أم

(١) سورة الزخرف الآيات ١ ــ ٤.

الكتاب ؟ قلت : الله ورسوله أعلم. قال : هو الكتاب الذي كتبه قبل أن يخلق السموات والأرض فيه أن فرعون من أهل النار و ﴿ **تبت يدا ابي لهب** ﴾[1]

* ومنهم **طاوس** رضي الله عنه ــ **روى** الطبري بسنده الصحيح الى عمرو بن دينار قال : قال طاوس : احذروا الجهني فإنه قدري.

* ومنهم **مجاهد** رضي الله عنه.

روى سعيد بن منصور عن سفيان عن ابن أبي نجيح أنه قال في قوله تعالى : ﴿ **لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين** ﴾[2] قال : لا تسلطهم علينا فيفتنونا فيفتنوا بنا.

وبسند البيهقي الصحيح الى ابن ابي نجيح انه قال في قوله تعالى : ﴿ **يحول بين المرء وقلبه** ﴾[3] قال : يحول بين الكافر وقلبه حتى يتركه لا يعقل.

وبسنده الى منصور عنه في قوله تعالى : ﴿ **مَا أَنْتُمْ عليه بفاتنين إلّا مَنْ هُو صَالِ الجحيم** ﴾[4] قال: في علم الله.

وبسند سعيد عن سفيان عن ابن ابي نجيح عنه في قوله تعالى : ﴿ **إني أعلم ما لا تعلمون** ﴾[5] قال : علم من إبليس المعصية وخلقه لها.

---

(١) سورة المسد الآية ١.

(٢) سورة يونس الآية ٨٥.

(٣) سورة الأنفال الآية ٢٤.

(٤) سورة الصافات الآية ١٦٣.

(٥) سورة البقرة الآية ٣٠.

وروى الطبري بسنده الى الحاكم عنه في قوله تعالى : ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه** ﴾[1] قال : مكتوب في ورقة في عنقه شقيٌّ أو سعيدٌ.

* ومنهم **ابن سيرين**[2] رضي الله عنه. روى الإمام أحمد بسنده عنه قال « إن لم يكن أهل القدر من الذين يخوضون في آيات الله فلا أدري من هم ».

* ومنهم **سعيد بن جبير** رضي الله عنه. روى سعيد بن منصور بسنده عنه في قوله تعالى ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾[3] : نجد الخير ونجد الشر.

وبسند الطبري اليه في قوله تعالى: ﴿ **لولا كتاب من الله سبق** ﴾[4] قال : ما سبق لأهل بدر من السعادة. وفي قوله تعالى : ﴿ **أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب** ﴾[5] قال: ما سبق لهم من الشقاوة.

* ومنهم **أياس بن معاوية** بن قرة رضي الله عنه. **روى** الإمام أحمد ابن حنبل رضي الله عنه بسنده عنه أنه قال : ما كلمت أحداً من أهل الأهواء بعقلي كله إلا القدرية. قلت لهم : ما الظلم فيكم ؟ قالوا : أن يأخذ الإنسان ما ليس له. فقلت لهم : إن لله كلَّ شيء.

قلت : وقد قدمت عن الإمام مالك أنه بلغه عنه أنه قيل له ما

(١) سورة الإسراء الآية ١٣.

(٢) محمد بن سيرين الأنصاري، مولاهم، أبو بكر البصري، إمام وقتِه، كان ثقة مأموناً، عالياً، رفيعاً، فقيهاً، كثير العلم، لم يُر في وقته أورع منه. روى عن جلة الصحابة والتابعين، ومات سنة عشرين ومائة للهجرة. انظر تهذيب الكمال صفحة ٢٨٠.

(٣) سورة البلد الآية ١٠

(٤) سورة الأنفال الآية ٦٨.

(٥) سورة الأعراف الآية ٣٧.

رأيك في القدر ؟ فقال : لا يعلم سرَّه الا الله. قال مالك وكان يضرب به المثل في الفهم.

* ومنهم **الشعبي**. **روى** الطبري بسنده الى الربيع بن خيثم عن زيد بن أسلم قال : والله ما قالت القدرية كما قال الله عز وجل، ولا كما قالت الملائكة، ولا كما قالت الأنبياء، ولا كما قال أهل الجنة، ولا كما قال أهل النار، ولا كما قال أخوهم إبليس. قال الله تعالى : ﴿ **وما تشاءون إلا أن يشاء الله** ﴾[1]. وقالت الملائكة عليهم السلام : ﴿ **لا علم لنا إلا ما علمتنا** ﴾[2]. وقال شعيب ﷺ : ﴿ **وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا** ﴾[3]. وقال أهل الجنة : ﴿ **الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله** ﴾[4]. قال أهل النار : ﴿ **ربنا غلبت علينا شقوتنا** ﴾[5]. وقال أخوهم إبليس : ﴿ **رب بما أغويتني** ﴾[6].

قلت : وهذا ما اقتصرت عليه أيضاً من كلام هؤلاء العلماء المذكورين الذي اقتصرت عليهم من أجلاء التابعين رضي الله عنهم أجمعين.

ومن الفقهاء الأجلاء الأئمة المشهورين، قدوة الأمة المتبعين السنة أحسن المتابعة المتبوعين أهل المذاهب الأربعة : مالك، والشافعي، وأحمد، وأبو حنيفة، رضي الله عنهم وأرضاهم وجعل في علا الجنان مأواهم.

وها أنا أذكر شيئاً من كلامهم وكلام أصحابهم في القدر بتقدُّم مَنْ تقدَّم منهم في الزمان وتأخير مَنْ تأَخَّر.

---

(١) سورة الإنسان الآية ٣٠.
(٢) سورة البقرة الآية ٣٢.
(٣) سورة الأعراف الآية ٨٩.
(٤) سورة الأعراف الآية ٤٣.
(٥) سورة المؤمنون الآية ١٠٦.
(٦) سورة الحجر الآية ٣٩.

* فالإمام أبو حنيفة وأصحابه رضي الله عنهم. فروى الإمام البيهقي بسنده الى أبي عصمة نوح بن أبي مريم قال : سألت أبا حنيفة : مَنْ أهلُ الجماعة ؟ قال : مَنْ فَضَّل أبا بكر وعمر، وأحبَّ عليًّا وعثمان، وآمن بالقدر خيره وشره من الله، ومسح على الخفين، ولم يكفِّر مؤمناً بذنب، ولم يتكلم في الله بشيء.

* وروى الطبري بسنده الى محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة قال : حدثنا أبو حنيفة وذكر سنده الى مسعود رضي الله عنه قال : يكون النطفة في الرحم أربعين يوماً، الحديث. فيقول : رب ذكر أو انثى شقي أو سعيد وما رزقه. قال محمد : وبهذا نأخذ وبه كان يأخذ أبو حنيفة : الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من وعظ بغيره.

وبسنده الى أبي يوسف صاحب أبي حنيفة قال : لا تصلِّ خلف جهمي، ولا رافضي، ولا قدري.

* وأما الإمام مالك وأصحابه رضي الله عنه، فروى البيهقي عنه أنه قال: القدرية شر الناس وأرذلهم وقرأ: ﴿ **يضلوا عبادك** ﴾[1] الآية.

قلت : يعني قول نوح عليه السلام ﴿ **إنك إن تذرهم يضلوا عبادك** ﴾[1]. وقال ابو بكر الأبهري في شرح ابن عبد الحكم عن مالك أنه قال في القدرية : يستتابون فإن تابوا والا قتلوا. قال : فقلت له : مَنِ القدرية عند مالك ؟ فقال : روى ابن وهب عن مالك انه قال : هم الذي يقولون إن الله لا يعلم الشيء قبل كونه.

وروى البيهقي بسنده انه سئل مالك عن تزويج القدرية ـــ فقال : ﴿ **ولعبد مؤمن خير من مشرك** ﴾[2] وبسنده الى يونس بن عبد

(١) سورة نوح الآية ٢٧.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٢١.

الأعلى[1] قال : سمعت أشهب يقول : قال مالك : القدرية لا تناكحوهم ولا تصلوا خلفهم ولا تحملوا عنهم، الحديث. وان رأيتموهم في ثغر فأخرجوهم منه.

وقال مالك : ما أضل مَنْ كذب بالقدر لو لم يكن عليهم إلا قوله تعالىٰ : ﴿ **خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن** ﴾[2] لكفى بها حجة.

وروى الطبري بسنده الى اشهب قال : سألت مالكاً عن قوله تعالى : ﴿ **ولا يزالون مختلفين إلا مَنْ رحم ربك ولذلك خلقهم** ﴾[3] قال ليكون ﴿ **فريق في الجنة وفريق في السعير** ﴾[4].

* **وروى** البيهقي بسنده الى الإمام الحافظ محمد بن يحيى الذهلي النيسابوري قال : السنة عندنا أن الإيمان قولٌ وعمل يزيد وينقص. وهو قول أئمتنا مالك والأوزاعي وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة. وأن القدر خيره وشره من الله عز وجل قد جف القلم بما هو كائن الى يوم يقوم الساعة. علم الله من العباد ما هم عاملون والى ما هم صائرون. وأمرهم، ونهاهم؛ فمن لزم أمر الله عز وجل وآثر طاعته فبتوفيق الله، ومَنْ ترك أمر الله وركب معاصيه فبخذلان الله اياه. ومَنْ زعم أن الاستطاعة قبل العمل بالجوارح اليه إن شاء عمل وان شاء لم يعمل كذب بالقدر، ورد كتاب الله عز وجل، وزعم أنه مستطيع لما لم يرده الله، ونحن نبرأ الى الله من هذا القول. ولكن نقول الاستطاعة في العبد مع الفعل؛ فإذا عمل عملاً بالجوارح من برٍّ أو فجور علمنا

---

(١) أبو موسى يونس بن عبد الأعلى بن ميسرة بن حفص بن حبان، الصدقي، المصري، الإمام صاحب الشافعي. إتفقوا على توثيقه وجلالته وتعظيم أمره. وهو أحد رواة النصوص الجديدة عن الشافعي. ولد في ذي الحجة سنة ١٧٠ هـ وتوفي في شهر ربيع الآخر سنة ٢٦٤ هـ. انظر تهذيب الأسماء واللغات ١٦٨/٢.

(٢) سورة التغابن الآية ٢.

(٣) سورة هود الآية ١١٨.

(٤) سورة الشورى الآية ٧.

أنه كان مستطيعاً للفعل الذي فعل. فأما قبل أن يفعله فإنّا لا ندري لعله يريد أمراً فيحال بينه وبينه والله تعالى مريد لتكوين أعمال الخلق. ومَنِ ادَّعى خلاف ما ذكرنا فقد وصف الله تعالى بالعجز وهلك في الداهرين.

* واما الإمام الشافعي واصحابه رضي الله عنهم، فقد روى الربيع ابن سليمان عن اصحابه عنه أنه قال: لَأَنْ يلقى الله العبد فكل ذنب من خلا الشرك بالله خير ما أن يلقاه بشيء من هذه الأهواء. وذلك انه رأى قوماً يتجادلون في القدر بين يديه. قال الشافعي: أخبر الله تعالى في كتابه أن المشيئة له دون خلقه، والمشيئة إرادة الله. قال تعالى: ﴿**وما تشاءون إلا أن يشاء الله**﴾[1] فأعلم خلقه أن المشيئة له. قال: وكان الشافعي يثبت القدر.

قلت: وقد قدمت ما رواه الإمامان المزني والربيع من اصحابه مما انشد قوله:

ما شئتُ كان وإن لم أشأ   وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن

الى آخر الأبيات الخمسة.

وقال الربيع عن الشافعي: لو حلف رجل فقال: واللهِ لا أفعل كذا الا أن يشاء الله أو إلا أن يقدر الله، واراد به القدر فلا شيء، أو قال فلا شيء عليه.

قلت: يعني لا يحنث. وقد قدمت تقرير المسألة عن إمام الحرمين.

وقال: عاصم سمعت المزني يقول: سألت الشافعي عن قول النبي ﷺ: ستة لعنهم الله المكذب بقدر الله. فقلت: من القدرية؟ فقال هم الذين يزعمون ان الله لا يعلم المعاصي حتى تكون. قال المزني:

---

(١) سورة الإنسان الآية ٣٠.

هذا عندي كفر. وقال عاصم : قال المزني : الله الخالق، وأفعال العباد مخلوقة لا يقدر أحد إن شاء شيئاً إلا أن يشاء الله. قال الله تعالى : ﴿ **وما تشاءون إلا أن يشاء الله** ﴾[1] قال : وسمعت المزني يقول : إذا قال والله لا أضرب اليوم أحداً، فضرب نفسه، لا يحنث لأنه إنما أراد غيره من الناس. وهذا يدخل في اللغة على القدرية.

وقول الله تعالى ﴿ **خالق كل شيء** ﴾[2]، فان الله تعالىٰ خالق الأشياء كلها، ومنها أعمال العباد. ولم يعن نفسه إنما أراد سواه.

قلت : وقد قدمت هذه القاعدة أيضاً، أعني كون المتكلم لا يدخل في حكم الخطاب.

* **واما** الإمام أحمد وأصحابه رضي الله عنهم، فقال حنبل : سمعت ابا عبد الله يقول : « علم الله في العباد، قبل ان يخلقهم، سابق؛ وقدرته ومشيئته في العباد، أو قال : نافذة في العباد وخلق آدم وعلم منه المعصية قبل أن يخلقه، وكذا علمه سابق محيط بأفاعيل العباد وكلٍّ ما هم عاملون.

قلت : ومما نقل عن الإمام أحمد وحكاه بعض أهل العلم عنه أنه قال : إذا سأل إنسان عن أفعال العباد أهي من الله عز وجل دون العباد، أم من العباد دون الله عز وجل، أم من الله عز وجل ومن العباد ؟ فالجواب عن ذلك أنها على غير ذلك لأن أفعال العباد لو كانت من الله عز وجل دون العباد، لكان العباد لا ثواب لهم ولا عقاب عليهم. ولو كانت من العباد دون الله عز وجل لكان العباد يعملون عملاً بغير علم الله ومشيئته وإرادته. ولو كانت من الله عز وجل ومن العباد على معنى واحد تشابهت العبودية بالربوبية. ولا يجوز

---

(١) سورة الإنسان الآية ٣٠.

(٢) سورة الزمر الآية ٦٢.

أن يقال بواحد من هذه الأقاويل بل يقال أفعال العباد هي من الله تعالى تقديراً وخلقاً ومن العباد عملاً واكتساباً.

ومعانيها من قبل الله عز وجل سبعة، والتي من قبل العباد سبعة؛ فالتي من قبل الله عز وجل : ١ ـــ علم سابق لا يخطئ بل يقع الأمر على وفق ما علم سبحانه، ٢ ـــ ومشيئة نافذة، ٣ ـــ وقدر مكتوب، ٤ ـــ وتسليط من الشيطان، ٥ ـــ وتطبيع الشهوة، ٦ ـــ وتركيب الهوى، ٧ ـــ وإحداث الطاقة.

قلت : يعني بالطاقة قدرة العبد على العمل.

قال : والتي من قبل العباد : النظر، والفكر، واهتياج الشهوة، واتباع الهوى، والغفلة عن العواقب، ورجاء المغفرة بلا ندم. انتهى كلامه في الأسباب.

ثم قال : والثواب والعقاب على الاكتساب والعمل لا على التقدير والله اعلم.

قلت : وهذه المذكورات من قبل العباد ست لا غير ـــ والسابعة ساقطة من الأصل ولعلها الاكتساب، والله اعلم بالصواب.

* ومن الفقهاء أولي المقامات الرفيعة شيخ **الإمام مالك ربيعة رضي الله عنه.** روى الإمام الطبري بسنده الى الإمام ذي الفضل والمجد الليث بن سعد قال : قال غيلان لربيعة : يا أبا عثمان أيرضى الله أن يُعصى ؟ فقال له ربيعة : أفتَعْصَى الله قهراً ؟

* ومن جملة الفقهاء الأئمة الأجلاء : **سفيان بن سعيد الثوري، وسفيان بن عيينة، وعبدالله بن المبارك، والأوزاعي** رضي الله عنهم.

فأما الإمام سفيان الثوري رضي الله عنه، فروى الإمام البيهقي بسنده عنه انه قال له إنسان : إن لنا إماماً قدرياً. فقال : لا تقدِّموه. قال : ليس لنا إمام غيره. قال : لا تقدِّموه.

وبسنده عنه ايضاً قال سمعت اعرابياً بعرفة يقول : اللهم مَنْ أَوْلى بالزلل والتقصير مني وقد خلقتني ضعيفاً، ومَنْ أَوْلى بالعفو عني منك وعلمُك فيَّ سابقٌ وأمرك فيَّ نافذ، أطعتك بإذنك والمنة لك عليَّ، وعصيتك بعلمك والحجة لك، فاسألك بوجوب رحمتك — أو قال بثبوت حجتك، وانقطاع حجتي — وبفقري اليك وغناك عني أن تغفر لي. اللهم لم أحسن حتىٰ أعطيتني ولم أسئ حتىٰ قضيت عليّ. اللهم إنَّا أطعناك بنعمتك في أحب الأشياء إليك شهادة أن لا إله الله، ولم نعصك في أبغض الأشياء إليك الشرك. فاغفر ما بينهما. اللهم إنك آنس المؤنسين لأوليائك وأقربهم بالكفاية للمتوكلين عليك، فشاهدهم في ضمائرهم وتطلع علىٰ سرائرهم، وسرِّي اللَّهم لك مكشوف وأنا بك ملهوف، واذا وحشتني الكربة آنسني ذكرك، واذا عمَّت عليَّ الهموم لجأت إليك استجارة بك علماً بأن أزمة الأمور بيدك وأن مصدرها عن قضائك.

* **وأما الإمام سفيان بن عيينة**[1]، رضي الله عنه، فروى الإمام البيهقي عنه أنه سئل عن القدرية، قال : قالت القدرية ما لم يقل عز وجل، ولا الملائكة، ولا النبيون، ولا أهل الجنة، ولا أهل النار، ولا ما قال أخوهم إبليس. قال الله عز وجل ﴿ **وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين** ﴾[2]. ثم ذكر من قول الباقين مثل ما قدمته عن زيد بن أسلم إلا أنه قال : وقال النبيون : ﴿ **وما يكون لنا أن نعود فيها** ﴾[3] ولم يقل وقال شعيب كما قال زيد بن اسلم.

---

(١) سفيان بن عيينة.. الهلالي، مولى، توفي سنة ثمان وتسعين ومائة وكان فقيهاً مجوداً، ولا كتاب له يعرف، وإنما كان يسمع منه. له تفسير معروف انظر الفهرست لابن النديم ص ٣١٦.

(٢) سورة الإنسان الآية ٣٠.

(٣) سورة الأعراف الآية ٨٩.

وبسند البيهقي أيضاً عنه أنه قال له انسان : يا أبا محمد إنَّا وجدنا خمسة أصناف كفروا بمن آمنوا به. قال مَنْ هم ؟ قال : الجهمية، والقدرية، والمرجئة، والرافضة، والنصارى. قال : قال الله تعالىٰ **﴿ وكلم الله موسىٰ تكليماً ﴾**[1]، فقال الجهمية : لا، ليس كما قلت، بل خلقت كلاماً، فكفروا وردوا على الله. وقال الله عز وجل : **﴿ ذوقوا من سقر انا كل شيء خلقناه بقدر ﴾**[2]، فقالت القدرية : لا، ليس كما قلت، الشر من البشر — وليس ممن خلقته وكفروا وردوا على الله. وقال الله تعالى : **﴿ ام حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات... ﴾**[3]، الآية، فقال المرجئة : لا، ليس كما قلت، بل هو سواء — فكفروا وردوا على الله عز وجل.

[أبو بكر وعمر خير الأمة الإسلامية بعد نبيها]

وقال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه : إن خير هذه الأمة بعد نبيها ﷺ أبو بكر، ثم عمر. فقالت الرافضة : لا، ليس كما قلت، بل أنت خير منهما، فكفروا به وردوا عليه.

[ما المسيح ابن مريم إلا عبد الله ورسوله]

وقال عيسى ابن مريم ﷺ : إني عبد الله ورسوله. فقالت النصارى : لا، ليس كما قلت، بل أنت هو، فكفروا وردوا عليه.

قال سفيان : النبوة؛ النبوة ! **قلت** : في قوله النبوة؛ النبوة، احتمالان :

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٤.

(٢) سورة القمر الآية ٤٩.

(٣) سورة الجاثية الآية ٢١.

أحدهما الإغراء؛ أي الزموا ما جاءت به النبوة. **والثاني** استعظام لما ادعوا فيه، وتكذيب لهم، وأن ليس عنده سوى النبوة ــ والله أعلم.

وبسنده أيضاً عنه أنه قيل له : ههنا رجل يكذب بالقدر ــ **فقال** : كذب عدو الله. لقد سمعت إعرابياً بالموقف وهو أفقه منه، يقول : اللهم خرجت وأنت اخرجتني، وعليك قدمت وأنت اقدمتني، أُطيعك بأمرك ولك المنة عليّ، وعصيتك بعلمك ولك الحجة عليّ، فانا أسألك بواجب حجتك وانقطاع حجتي إلا رددتني بذنب مغفور.

[لا يؤمن النصارى من أربع خصال]

* وأما الإمام **ابن المبارك** رضي الله عنه، فروى الامام البيهقي بسنده عنه أنه قال : إن النصارى لا يؤمنون من اربع خصال : ذنب قد مضى لا يُدرَى ما الرب يصنع فيه، وعمر قد بقي فيه لا يُدرى ما فيه من إهلاكات، وفضل قد أعطي لعله مكر واستدراج، وضلالة قد زينت له فرآها هدى. ثم ذكر كلاماً معناه كم من زاغ قلبه ساعة أسرع من طرفة قد سلب دينه وهو لا يشعر. نسأل الله الكريم العافية.

[من هو الكافر ؟]

روى الطبري بسنده أنه قال : ومَنْ قال إن الله لا يعلم الشر حتى يكون فهو كافر، ومَنْ قال أنا مستغن عن الله فهو كافر، ومَنْ قال إن الله ظالم العباد فهو كافر.

قلت : يعني مَنْ زعم أنه تعالى اذا قدَّر على العبد المعصية ثم عاقبه عليها يكون ظالماً. وقد قدمنا إقامة البرهان على أنه لا يكون تعالى ظالماً بذلك؛ لأنه المتصرف في خلقه المالك.

* **وأما** الإمام **الأوزاعي** رضي الله عنه، فروى الإمام البيهقي بسنده

الصحيح عنه في حديث يهودانه وينصرانه[1]، قال على ما سبق له في العلم لا مخرجاً به من علم الله والى علم الله يصيرون.

وبسنده أيضاً أنه سئل عن القدرية، فقال للسائل : لا تجالسهم.

وبسند الطبري الى بقيّته قال : سألت الأوزاعي الزبيدي عن الجبر. فقال الترمذي : أمر الله وقدرته أعظم من أن يجبر ويقهر ولكن يقضي ويقدر ويخلق ويجبل عنده على ما شاء.

وقال : الأوزاعي : ما أعرف الجبر أصلاً في الكتاب والسنة ولكن القضاء والقدر والخلق والجَبْل.

* **ومن** الفقهاء السادة المشهورين قتادة. روى الإمام البيهقي بسنده الى سعيد بن أبي عروبة، قال : سألت قتادة عن القدر، فقال : تسألني عن رأي العرب؛ إن العرب في جاهليتها وإسلامها كانت تثبت القدر.

وبسنده الصحيح اليه عنه في قوله تعالى : ﴿ **إنّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم ازًّا** ﴾[2]، قال : تزعجهم الى المعاصي إزعاجاً.

قلت : وهذا ما اقتصرت أيضاً عليه من كلام الأئمة المذكورين الذين اقتصرت عليهم في الفقهاء الأجلة المشهورين.

وأما المشايخ العارفون الأولياء المقربون، فسيأتي ذكر اثباتهم للقدر وأنهم عليه مجمعون.

وأما ائمة الحديث المتقنون الحفاظ المسندون، فقد اندرج ذكر بعضهم في الأئمة المذكورين مثل الإمامين مالك وأحمد — والإمامين سفيان وسفيان وغيرهم من **الفقهاء** المذكورين، وممن ذكرت من العلماء التابعين، وبعضهم تقدَّم ذكرهم في الأحاديث التي استدللت بها على

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث.

(٢) سورة مريم الآية ٨٣.

إثبات القدر. فهم الذي رووها وذكرهم أشهر من أن يشهر، أعني الأئمة الحفاظ العباد الأعلام الذين علىٰ كتبهم مدار الإسلام، وهم : الإمام أبو عبدالله **البخاري** ــ والإمام أبو الحسين **مسلم** بن الحجاج النيسابوري ــ والإمام **أبو داوُد** السجستاني ــ والإمام أبو عيسى **الترمذي** ــ والإمام ابو عبد الرحمن **النسائي** رضي الله عنهم.

وأما أئمة الأصول المحققون النظار المدققون، فعقائدهم في ذلك معروفة وتصانيفهم مشهورة، موصوفة، مشحونة بالبراهين المفحمة القاطعة في الرد على المبتدعين الخارجين عن المتابعة.

وقد ذكرتَ جماعة منهم في أول هذا المعتقد، وفي مواضع منه استدل بأقوال بعضهم عليها المعتمد.

وكذلك أئمة علم الأدب كأبي عمرو والخليل والأصمعي وثعلب وغيرهم من علماء العربية موافقون على العقيدة السنية.

وقد روى الإمامان ابن عبد البر والطبري بسنديهما عن الإمام الأصمعي، قال : سأل اعرابي عن القدر. فقال : ذلك علم اختصمت فيه الظنون وغلا فيه المختصمون. والواجب علينا أن نرد ما اشكل علينا من حكمه الى ما سبق من علمه.

وقال الأصمعي سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : أشهد أن الله يضلُّ مَنْ يشاء، وله الحجة البالغة علىٰ عباده وغير ذلك مما رواه [غير] امام باسناده وهو اعتقاد كافة العرب ــ كما رواه الإمام ثعلب، قال : لا أعلم عربياً قدرياً. قيل له : يقع في قلوب العرب القول بالقدر. قال : معاذ الله ما في العرب إلا مثبت للقدر خيره وشره، أهل الجاهلية والإسلام، وذلك في أشعارهم وكلامهم كثير.

وكذا حكاه عمر بن عبد العزيز وقتادة كما تقدم. وحكاه ايضاً ثعلب عن سائر العجم ــ والله اعلم.

وقلت : قد اقتصرت على نقل هذه النبذة اليسيرة عن يسير من العلماء القائلين بذلك من الأصناف المذكورة ممن طبق وجه الأرض ذات الطول والعرض. وعلى الجملة فقد انعقد الإجماع من الصحابة فمن بعدهم قبل ظهور الابتداع.

بيان إجماع الصحابة على اثبات القدر بما صح من الدليل واشتهر

روى الإمام الطبري بسنده الى سعيد بن ابي مريم — وهو عنه احتج به البخاري ومسلم — قال: أخبرنا مالك وابن أبي الزناد عن عمر وعن طاوس قال: أدركت ثمانمائة من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون كل شيء بقدر. (**قلت**: هكذا هو في الأصل المنقول منه ثمان مائة بحذف الياء التي بعد النون).

وروى أيضاً بسنده الى أبي الأسود الدؤلي أنه قال: ما رأيت أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ إلا مثبت القدر.

وروى الإمام مالك في الموطأ عن طاوس أنه قال: ادركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون كل شيء بقدر حتى العجز والكيس.

أو: الكيس والعجز — هكذا رواه يحيى بن يحيى وابن مصعب وغيرهما عن مالك.

وهكذا رواه مسلم — قال الامام بن عبد البر ورواه ابن وهب والقعنبي: أدركت اصحاب رسول الله ﷺ يقولون كل شيء بقدر.

وروى الإمام البيهقي بسنده الصحيح الى حماد بن زيد، قال: ادركت الناس وما كلامهم إلا أن قضى وقدر.

وقد ثبت في الصحاح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : نَفِرٌ من قدر الله الى قدر الله بمحضر جمهور المهاجرين الأنصار، فأقروه على ذلك من غير إنكار.

وكذلك صح عنه ما قدمت بعضه؛ **وهو ما روى** الإمام البيهقي بسنده الصحيح الىٰ حماد عن خالد الحذاء عن عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر بن عبدالله بن الحارث بن نوفل ــ **قال** : خطبنا عمر ابن الخطاب بالجابية فحمد الله وأثنى عليه ــ فلما أتى على ﴿ **من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له** ﴾[1] قال له الجاثليق : إن الله لا يهدي ولا يضل. فقال عمر : كذبت يا عدو الله بل الله خلقك وهو أضلك، وهو يدخلك النار إن شاء الله، والله لولا لوث عهدك لضربت عنقك.

وكذلك رواه الإمام الطبري بسنده الصحيح الى الإمام سفيان الثوري وغيره عن خالد الحذاء بسنده المذكور، وقال فيه : بل الله خلقك، والله أضلك ثم يميتك فيدخلك النار إن شاء الله، وذكر ما تقدم. ثم قال : إن الله تعالىٰ خلق الخلق وكتب ــ او قال خين خلق الخلق ــ او قال حين خلق آدم ــ كتب أهل الجنة وما هم عاملون، وكتب أهل النار وما هم عاملون. ثم قال : هؤلاء لهذه وهؤلاء لهذه، فيفرق الناس، وما تخلف في القدر اثنان.

وكذلك ما قدمت عنه بسند الإمام البيهقي انه كان كثيراً ما يقول على المنبر : وخفض عليك فان الأمور بكف الإله مقاديرها، مع البيت الثاني.

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٦.

وكذلك ما قدمت بسند الامام مالك في الموطأ عن ابن الزبير أنه كان يقول في خطبته : إن الله هو الهادي والفاتن — وكل هذا المذكور واقع في مجامع المهاجرين والأنصار، ومستفيض بينهم من غير إنكار. وكذلك إجماع السلف والخلف مطلقاً على قول : ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. وكل هذا على وجه الإجمال والتعميم.

وقد قدمت أنه روى أحاديث اثبات القدر فوق ثلاثين صحابياً مع التسمية لهم والتابعين. وذكرت كلام جماعة منهم في إثباته على وجه التفصيل والتبيين، من أجلائهم وكبارهم من أهل البيت وغيرهم.

قلت : واذا علم ما روينا وتقرر علم أن مذهب الحق الأنور، ومنهج السنة الأزهر، أن كل خير وشر، ونفع وضر، بقضاء وقدر.

ومن ذلك : أن كل طاعة وعصيان، وإساءة وإحسان، وسائر أفعال العباد واقوالهم، وعلمهم وأعمالهم، ونياتهم وعقيداتهم، وسائر حركاتهم وسكناتهم، وكلما قدر الله تعالى مقدوره من أجر وثواب، وحساب وعقاب، فهو الحكم الحق اللائق بحكمته، والسابق في علمه الجاري في طريقي الفضل والعدل الى جميع خلقه، ولا ظلم ولا جور الا فيما وقع مخالفاً لأمره ونهيه.

وقد قدمت الكلام في بيان ذلك وتقريره وتحريره وتحقيقه — وكل أفعال الله تعالى متساوية بالنسبة الى الحِكم الإلهية — وانما يختلف مراتبها بالاضافة الى البرية.

قال نقاد الأنظار وأستاذ النظار فحل المتكلمين، إمام الحرمين رضي الله عنه : ولولا أنه شاع في ألفاظ عصبة الحق أنه تعالىٰ خالق الخير

والشر لكان سرُّ التوحيد يوجب أن يقال ليس في أفعال الله خير وشر بالإضافة الى العبد. قال : وقد نبَّه على هذا رسول الله ﷺ، حيث قال : خلق الله آدم ثم أخذ الخلق من ظهره، فقال : هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي.

قلت : وهذا الحديث رويناه في صحيح ابي حاتم بن حبان كما قدمت.

بيان الاستدلال والاستشهاد على خلق الله تعالى افعال العباد

الدليل على ذلك مع ما قدمنا من المعقول والمنقول من الآيات وأحاديث الرسول ﷺ — وبلغه من أمته نهاية السؤال قوله عز وجل :

﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمىٰ ﴾[1] *

﴿ أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾[2]

﴿ أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾[3]

سلب عنهم القتل والرمي والزرع مع مباشرتهم لذلك، وأثبت فعل المذكورات لنفسه، وأخبر أنه خلق الذي تمنون، ودخل في ذلك ما يمنىٰ في الطاعة والمعصية معاً.

فما تقول أيها المعتزلي في منيّ الزاني وشهوته للزنا وقدرته عليه خلق ذلك كله أم لا ؟ وكذلك ولد الزنا — وهل كان الأصلح له

---

(١) سورة الأنفال الآية ١٧.

(٢) سورة الواقعة الآية ٥٨.

(٣) سورة الواقعة الآية ٦٣.

ان يكون ولد زنا أو ولد حلال ؟ وكذلك قوله تعالى: ﴿ **إنه هو أضحك وأبكى** ﴾[1] من أضحك الكافر عند سروره بقتله للمسلم وحصول غرضه في جميع فجوره ؟ ومن أبكى المسلم حزناً عند قتل الكافر أباه وأخاه ؟ وهل المضحك والمبكي إلا من صدر عنه الإضحاك والإبكاء ؟

واذا كان الأمر كذلك، ولا سبيل الى أن تقول غير ذلك ألزمتك ما لا تجد عنه محيصاً، ولا ترى لك منه خلاصاً؛ وهو أن أقول في تقدير ذلك : القتل سبب لضحك القاتل، والسبب متوقف على مسبب يوجده، ومتوقف علي مسبب بالفتح يصدر عنه، ينسب ذلك المسبب تارة الى المسبب وتارة الى السبب. تقول : أحيا الله الأرض وأحياها المطر، وأضحك الله سنك واضحكتك نعمة الله؛ فالمسبَّب (بالفتح) هو الضحك، والسبب هو النعمة والمسبِّب هو خالقها. ثم المسبَّب (بالفتح) متوقف على السبب المتوقف على المسبِّب من حيث الجملة. والمتوقف على المتوقف علىٰ شيء متوقف على ذلك الشيء ـــ فالمسبب متوقف على المسبب ـــ والمتوقف على شيء لا يوجد الا بذلك الشيء ـــ ومسبِّب الأسباب هو ربُّ الأرباب.

فجميع الأسباب والمسببات لا توجد إلاَّ به. والقتل في الصورة المذكورة سبب، والضحك مسبب فلا يوجد إلاَّ به، هو المطلوب والحمد لله.

وأقول أيضا : مسبِّب الأسباب موجِدُها، والموجد هو الخالق، ومسبِّب الأسباب هو الله ـــ فخالق الأسباب هو الله. والقتل المذكور سبب للضحك فخالقه هو الله، وهو فعل العبد؛ ففعل العبد خالقه الله، فثبت ما ذكرنا من كون أفعال العباد خلق الله وهو المطلوب والحمد لله.

---

(١) سورة النجم الآية ٤٣.

وأقول أيضاً : أفعال العباد مُوجِدُها هو المولى ــ لقوله جل وعلا : ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** ﴾[1]، فنص الله تعالى على أنه هو الرامي، والرامي موجِدُ الرمي، والرميُ فعل العبد؛ فصح وثبت ما ذكرنا من خلقه تعالى أفعال العباد. وذلك هو المطلوب والمراد، والحمد لله الذي من يهده فلا مضل له ومن يضلل فما له من هاد.

ثم أفعال العباد مشتملة على طاعات ومعاصي كما قررت لك في القتل. وكذلك لك الضحك المرتب عليه، وهو المضحك تعالى بالدليل القاطع من العقل والنقل. فخالق الكل هو الله الحكم العدل القاضي بذلك، والخالق له بالقدرة المقارنة للفعل التي بها قدر العبد عليه والناهي عنه حكمه، وابتلاء المعاقب للمخالف إن شاء على كسبه يوم رجوعه اليه، ولغير الموجد فلا بد لقوله الصدق في القرآن المجيد : ﴿ **الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾[2]، حيث قال سبحانه وتعالى : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾[3].

فإنْ قلتَ : قوله تعالى : ﴿ **أضحك وأبكى** ﴾[4] محمول على غير ما ذكرت، ففي تفسيره أقوال مشهورات؛ منها ما قيل : أبكى السماء بالمطر ــ وأضحك الأرض بالنبات. والى ذلك اشار القائل بقوله :

أما ترى الأرضَ قد أعطَتْكَ زهرَتَها ... مخضرةً واكتسى بالنور عاريها
وللسماء بكاءٌ في جوانبها ... وللربيعِ ابتسامٌ في نواحيها

قلت : الضحك والبكاء حقيقة في المعروفين، بين الناس المشهورين،

---

(١) سورة الأنفال الآية ١٧.
(٢) سورة فصلت الآية ٤٢.
(٣) سورة النساء الآيتان ٤٨ ــ ١١٦.
(٤) سورة النجم الآية ٤٣.

والحقيقة هي الأصل الذي عليه التعويل، ولا يعدل عنه إلا بدليل، وذلك أيضاً هو الظاهر، واليه الفهم مبادر.

فان سلمت ذلك وادعيب التخصيص فيه، **قلت** خلاف الأصل.

فإن قلت : لا نسلم أن الضحك يكون معصية، **قلت** : من زعم أن الضحك للسرور، بحصول الغرض من الشرور، كالقتل وسائر الفجور، ليس هو من المحذور — فهو في جحد القطعيات يسعى فان السرورَ بالمعصية معصيةٌ قطعاً. وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ **وجعلناهم أئمة يدعون الى النار** ﴾[1].

وقوله سبحانه: ﴿ **هو الذي يسيركم في البر والبحر** ﴾[2]، والسير قد يكون في المعصية.

وقوله تعالى : ﴿ **وخلق كل شيء فقدره تقديراً** ﴾[3].

وقوله سبحانه : ﴿ **من يضلل الله فلا هادي له** ﴾[4] *

﴿ **سواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾[5] *

﴿ **وما جعلنا الرؤيا التي اريناك الا فتنة للناس** ﴾[6] *

﴿ **وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة** ﴾[7] *

قلت : والكتاب العزيز مشحون بالآيات الكريمات المصرحات بخلقه تعالى لأفعال العباد وإرادته لها، وتعداد ذلك يطول، وآية واحدة تكفي أُولي العقول.

---

(١) سورة القصص الآية ٤١.

(٢) سورة يونس الآية ٢٢.

(٣) سورة الفرقان الآية ٢.

(٤) سورة الأعراف الآية ١٨٦.

(٥) سورة البقرة الآية ٦.

(٦) سورة الإسراء الآية ٦٠.

(٧) سورة المدثر الآية ٣١.

وقد استدل أصحابنا بقوله تعالى : ﴿ **والله خلقكم وما تعملون** ﴾[1] قالوا : وما مصدرية أي خلقكم وأعمالكم.

وقول المعتزلة إنها موصولة، ومعناها : والذي تعملون مخالف للظاهر ومحتاج الى إضمار أي والذي تعملون فيه البحث من الحجارة. والاضمار خلاف للأصل.

ولو فتحنا باب حَمْل الأدلة على خلاف ظواهرها أو على زيادة الإضمار فيها، لأزيلت الظواهر كلها وبطل الاستدلال بها.

وقول المعتزلة إن إبراهيم عليه السلام احتج على الكفار بأن العابد والمعبود جميعاً خلق الله ومعبودهم هو الحجارة ممنوع.

قلت : وتقرير المنع أنهم كانوا يحدثون فيها تصويراً وتمثالاً لأجله اتخذوا الأصنام آلهة وعبدوها. والدليل عليه قول إبراهيم ﷺ : ﴿ **ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون** ﴾[2]؛ فأخبر أن عكوفهم إنما هو التماثيل. والتماثيل تصاوير في الحجارة لا صورة الحجارة التي خلقت عليها. والتماثيل عملهم فمعبودهم الذي عكفوا عليه عملهم. ومعبودهم خَلْقُ الله إجماعاً، فعملهم خَلْقُ الله وهو المطلوب، والحمد لله.

فان قيل : يمتنع أن يكون التمثيل آلهة لأن التمثيل عمل والعمل عرض، والعرض لا يتصور اتخاذه آلهة. **قلت** : الجواب من وجهين :

أحدهما : مَنْع امتناع اتخاذ الأعراض آلهة بدليل قوله تعالى : ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه** ﴾[3]، والهواء عرض بالاتفاق.

(١) سورة الصافات الآية ٩٦.
(٢) سورة الأنبياء الآية ٥٢.
(٣) سورة الجاثية الآية ٢٣.

والثاني : أن التماثيل والتصويرية صارت الحجارة على صورة غير صورتها المخلوقة عليها، لولا تلك الصورة ما عبدوها فمعبودهم هو الصورة التي مثلوها وهو عملهم، فمعبودهم عملهم ومعبودهم خَلْقُ الله كما تقدم، فعملهم خَلْقُ الله وهو المطلوب، والله اعلم.

ويؤيد ما ذكرنا من أن الأعمال خَلْقُ الله عز وجل، ما روى البخاري عن حذيفة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : إن الله يصنع كل صانع وصنعته. وتلا بعض الرواة عند ذلك ﴿ **والله خلقكم وما تعملون** ﴾[1] **قال البخاري** : فاخبر أن الصناعات وأهلها مخلوقة؛ قال : وسمعت عبدالله بن سعيد يقول : سمعت يحيى بن سعيد يقول : ما زلت أسمع أصحابنا يقولون أفعال العباد مخلوقة.

ورواه البيهقي في كتاب القدر ولفظه : « ان الله خلق كل صانع وصنعته ». وقال هذا إسناد صحيح.

وروي في كتاب الاعتقاد بسند صحيح الى قتادة في قوله تعالى : ﴿ **والله خلقكم وما تعملون** ﴾[2] قال : « خلقكم وخَلَق ما تعملون بأيديكم »

قلت : وعلى الجملة فقد قال أئمتنا من الأولياء والعلماء : أثبت الله تعالى الخلق لنفسه ونفاه عن غيره بقوله عز وجل : ﴿ **ألا لَهُ الخلق والأمر** ﴾[3]. ولما قرئت هذه الآية بين يدي الشيخ الكبير العارف بالله عمر النهاري الشهير قال : تعالوا نقتسم ما بقي. **قلت** : يعني أنه لم يغير الله تعالى شيء من الخلق والأمر.

---

(١) سورة الصافات الآية ٩٦.

(٢) سورة الصافات الآية ٩٦.

(٣) سورة الأعراف الآية ٥٤.

والأحاديث الدالة على ما ذكرنا من خلق الأفعال والهداية والإضلال وسبق المقادير في أزل الآزال خارجة عن الحصر والتعداد مشهورة صحيحة الإسناد. وقد قدمت منها ما فيها الكفاية لمن وفق للهداية.

* **وقد روينا في** صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: الحمد لله نحمده ونستعينه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، الحديث.

* **وروينا في** سنن أبي داوُد والترمذي عن ابن مسعود[1] رضي الله عنه، قال: علمنا رسول الله ﷺ خطبة الحاجة: الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. قال الترمذي حديث حسن.

* **وروينا في** صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يتعوذ من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الاعداء.

* **وروينا في** صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: اللهم إنك إن تشأ لا يعبد في الأرض — قال العلماء فيه التسليم لقدر الله تعالى، والرد على غلاة القدرية الزاعمين ان الشر غير مراد ولا مقدور لله تعالى عن قولهم.

قال أئمتنا: وقد اتفق سلف الأمة وخلفها من الصحابة والتابعين ومَنْ بعدهم من العلماء السلف الصالحين رضي الله عنهم أجمعين على ان الخالق المبدع هو الله لا خالق سواه ولا مبدع إلا إياه؛ خَلَقَ الخلق وصنعهم، وأوجد قدرتهم وحركتهم، فلا يكون شيء إلا بخلقه وإبداعه وإرادته وقضائه.

---

(١) انظر كنز العمال ٥١٢/١٥ الحديث رقم ٢٢ ٤٣٦ وقال الحافظ جلال الدين السيوطي: حديث متفق. رواه ابن مسعود.

بيان معنى الاستطاعة القائمة بالعباد التي يصدر عنها افعالهم على وجه الصلاح أو الفساد وبيان التوفيق والخذلان والهدى والضلال

قال أئمتنا : سلامة الجوارح وانتفاء الموانع الظاهرة لا يُوجِدُ الفعْلَ من الفاعل بمجردها، بل لا بد من قوة خاصة متجددة من عند الله تعالى يخلقها في العبد، وهي على حسب ما يخلق الله تعالى فيه؛ فان فعل بها خيراً سمِّي توفيقاً وعصمة وتأييداً، وإن فعل بها شراً سمِّي خذلاناً، وإن فعل مباحاً سُمِّي عوناً. وهذه الاستطاعة لا تكون إلا مِع الفعل، ويسبقها خَلْقُ العزم عليه، فلا بُدَّ في الأفعال الاختيارية من خلْق الله تعالى لأعضاء ولحركة فيها ولقوةٍ وهمة يصدر بها الأفعال، والله خالق للشخص ولقواه ولعزمه وأفعاله.

والدليل علىٰ خلق القوة والهمة إجماع المسلمين على سؤال الله التوفيق، والاستعاذة من الخذلان، وما سألوه إلا ما هو بيده وقادر عليه.

قال شعيب عليه السلام : وما توفيقي إلا بالله، فهو تعالى خالق العضو المتحرك والقوة فيه، والحركة الناشئة منه ــ وخالق العبد واختياره ولا يخرج شيء عن خلقه وقدرته فله الخلق والأمر وبه الحول والقوة.

والتوفيق هو خلق قدرة الطاعة، **والخذلان** خلق قدرة المعصية ــ فالموفق لا يعصى اذ لا قدرة له على المعصية ــ وكذلك القول في نقيضه.

قلت : والمراد بقوله : والموفق لا يعصى، أن الموفق بشيء أو في وقت لا يقدر يعصي فيهما مطلقاً إلا ان يكون موفقاً مطلقاً كالملائكة والأنبياء عليه السلام. وذلك هو العصمة مختصة بهم، وكذلك النقيض المذكور. فالمخذول، والعياذ بالله، في شيء أو في وقت لا يقدر يطيع فيهما. والمخذول مطلقاً يمتنع عليه الطاعة كالشياطين نعوذ بالله منهم.

وصرفت المعتزلة التوفيق الى خلق لطف يعلم الرب تعالى أن العبد يؤمن عنده، وحملوا الخذلان على امتناع اللطف. ولا يقع عندهم في علوم الله اللطف في حق كل أحد، بل منهم من علم تعالى أنه يؤمن إذا لطف به. ومنهم مَنْ علم أنه لا يزيده إلا تمادياً في الطغيان وإصراراً على العدوان.

قال إمام الحرمين : ويلزمهم من مجموع أصلهم أن يقولوا أنْ لا يتصف الرب تعالى بالاقتدار على أن يوفق جميع الخلائق، وهذا خلاف الدين ونصوص الكتاب المبين. وقد قال سبحانه : ﴿ **ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها** ﴾[1]، وقال تعالى : ﴿ **ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة** ﴾[2]، الى غير ذلك. انتهى.

قال أصحابنا : واذا صحت الجوارح وارتفعت الموانع الحسية سميت استطاعة يتوجه بسببها التكليف. وهذه الاستطاعة تكون قبل الفعال ومعه مستصحبة الى تمامه ليتمكن منه. وهذه الاستطاعة هي محل نظر الفقيه لتعلُّقها بفروع الدين. وأما ما يتعلق بأصوله، فنظر الأصولي في استطاعة

---

(١) سورة السجدة الآية ١٣.

(٢) سورة هود الآية ١١٨.

أخرىَ وزائدة لا حيلة للعبد فيها، وهي ما تقدم ذكره. أعني القوة الواردة من الله تعالى للتوفيق والخذلان أو العون على ما تقدم من البيان، وذلك هو خلق الله للفعل فيمن ظهر منه، وبسبب ظهوره من الفاعل ينسب اليه وسمِّي كسباً، ويرتب عليه الثواب في امتثال المأمورات والعقاب في ارتكاب المحظورات.

قلت : ولو قيل : وبسبب ظهوره من الفاعل واختياره لكان أَوْلى ليخرج عنه غير المختار. فاذا الاستطاعة استطاعتان : **إحداهما** : استطاعة التكليف وهي ما ذكرنا من سلامة الجوارح وارتفاع الموانع الحسية، وقد يعبر عن ذلك باجتماع شروط معروفة في المكلف. **والثانية** : استطاعة الفعل وهي القوة المذكورة. وخالفت المعتزلة في ذلك؛ فزعموا أن الاستطاعة إنما هي قبل الفعل، وهي سلامة الجوارح وارتفاع الموانع فقط، وأن القدرة المتقدمة على الفعل باقية فيه. وهذا القول باطل من جهتَي العقل والنقل؛ أما العقل فلأن القدرة الجاذبة، أعني قدر العبد، عرض من الأعراض، وجملة الأعراض عندنا غير باقية أعني لا يبقى العرض زمانين.

والدليل على استحالة بقاء الأعراض أنها لو بقيت لاستحال عدمها. وتقرير ذلك قد تقدم ويلزم صدور المقدور في حال عدم القدرة وهو محال.

وأما النقل فقال الله عز وجل : ﴿ **وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم أنهم لكاذبون** ﴾[1] الى قوله تعالى ﴿ **فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين** ﴾[2].

---

(١) سورة التوبة الآية ٤٢.

(٢) سورة التوبة الآية ٢٦.

قلت : ووجه الاستدلال بذلك أن الله تعالى كذبهم في نفي الاستطاعة الأولى التي هي صحة الجوارح وارتفاع الموانع، وهي مناط التكليف، فإنها موجودة فيهم. ولكنهم عدموا الاستطاعة الثانية التي هي خلق قدرة الطاعة المقارنة للفعل المسماة بالتوفيق التي نقيضها الخذلان الذي منعهم من الخروج على التحقيق بدليل قول أصدق القائلين : ﴿ **فثبّطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين** ﴾[1].

قلت : والشواهد الدالة علىٰ ما ذكرنا من الاستطاعة الثانية التي أثبتها أهل الحق يطول ذكرها بل يتعذر حصرها. ومنها قوله تعالى : ﴿ **ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون** ﴾[2]. وقوله ﷺ للذي أراد قتله : لم تكن لتستطيع الذي أردت. وذلك ما روى الحاكم في المستدرك على الصحيحين أنه جاء رجل الى رسول الله ﷺ فقال : من أنت ؟ قال : أنا نبي. قال : وما نبي ؟ — قال : رسول الله. قال : متى تقوم الساعة ؟ فقال: غيب، ولا يعلم الغيب الا الله قال: أرني سيفك. فأعطاه النبي ﷺ سيفه. فهزه الرجل ثم رده عليه. فقال رسول الله ﷺ: أما إنك لم تكن تستطيع الذي أردت. **قال** الحاكم أبو عبدالله على شرط مسلم.

الحاكم ابو عبدالله على شرط مسلم.

قلت : وهذا في بعض الغزوات. وقضيته مشهورة في وقت القيلولة تحت الأشجار عندما حمى النهار. ولا حاجة الى كثرة الاستشهاد، وتتبُّع ما هو خارج عن الحصر فالمراد حاصل من ذلك بهذا القدر.

قلت : ومن الفوائد الغريبة المطرية العجيبة ما ذكر الشيخ الكبير العارف بالله الشهير أبو طالب المكي رضي الله عنه، قال : كنت مرة خاطبت بعض أصحابنا في مسألة الاستطاعة أنها مع الفعل لا قبله ولا

(١) سورة التوبة الآية ٢٦.

(٢) سورة هود الآية ٢٠.

بعده. فتكلمت بذلك في المشيئة على مذهب أهل الكلام المختلفين فيها قبل ان ينكشف لي مشاهدة علم اليقين. فرأيت في النوم قائلاً يقول : القدر من القدرة والقدرة صفة القادر، والقدر يقع على الحركة ويظهر الأفعال من الجوارح ولا يتبين فكيف تتكلم في شيء لا يتبين ؟ فجعلت على نفسي أن لا أناظر أحداً في هذا الباب.

قال : وحدثت عن بعض المشائخ قال : كان في نفسي شيء من هذا القدر، فكنت استكشفه فلا ينكشف حتى لقيت بعض الابدال فاستكشفته إياه؛ فقال لي : ويحك ما تصنع بالاحتجاج نحن ينكشف لنا عن سرِّ الملكوت فننظر الى الطاعات تنزل صوراً من السماء حتى تقع على جوارح قوم فيتحرك الجوارح بها، وننظر الى المعاصي تنزل صوراً من السماء على جوارح قوم فيتحرك الجوارح بها، فكشف الله عن قلبي القدر ـــ أو قال الجهل بالقدر ـــ وأخلف لي العلم بمشاهدة القدرة.

وقال : الخلق أهون من أن يفعلوا شيئاً لا يريده الله تعالى من المعاصي أو الطاعات.

وقد ظهر صحة قولنا وبطلان قولهم من طريقي العقل والنقل صحةً وبطلاناً واضحين للناظر المعتبر. وناهيك بذلك وضوحاً للمستيقظ المستبصر أنهم زعموا أن مقدورات العباد ليست مقدورات للرب تعالى.

قال أئمتنا : وسبيلنا أن نسألهم هل كان الرب سبحانه قبل أن يقدر عبده على ذلك موصوفاً بالاقتدار على ما كان في معلومه أنه سيقدره عليه أم لا ؟ فإن قالوا لا، فقد ظهر بطلان ما قالوا. **وقال** بعضهم : فقد كفروا لتعجيزهم ربهم سبحانه فيما هو من جملة الممكنات ولم يتعلق به قدرة العبد بعد.

وإن قالوا نعم، قلنا : كيف يكون باقتداره العبد عليه خارجاً عن

مقدوره بعد أن كان عليه قادراً، وصفاته تعالى تستحيل أن تتبدل أو تنتقص وتتغير. وليس لهم شبهة تبدونها لدفع ما لزمهم في هذا من الباطل الشنيع والضلال الفظيع سوى ما زعموا من استحالة مقدور بين قادرين. وهذا كلام جاهل لم يحط بالمسألة تحقيقاً او مكابر لكونه لم يجد الى الخلاص مما لزمه طريقاً.

فإن أهل الحق يعتقدون تفرُّد الباري سبحانه بالخلق والاختراع، فلا خالق سواه تعالىٰ، وهم يعتقدون تفرد العبد بخلق اعماله فلا خالق سواه لها.

واذا كان المذهبان في المسلكين المذكورين سالكين وعن المنهلين المذكورين صادرين ـــ فأين ما زعموه من مقدور بين قادرين.

قال إمام الحرمين ولو تناقص في معتقد المخالف بقاؤه مقدوراً لله مع تجدد تعلُّق قدرة العبد به فاستبقى كونه مقدوراً للرب.

وانتفاء كونه مقدوراً للعبد أُولى من انقطاع تعلُّق كون الرب تعالى قادراً عليه لتجدُّد كونه مقدوراً للعبد.

واذا ثبت وجوب كون مقدور العبد مقدوراً لله فكما هو مقدوره تعالىٰ، فإنه محدثه وخالقه؛ اذ من المحال أن يتفرَّد العبد باختراع ما هو مقدور الله تعالى.

بيان كسب العبد لافعاله ونسبتها اليه مع خلق الله لها وتقديرها عليه

اعلم أن جميع ما قدرنا من انفراد الباري تعالى بخلق أفعال العباد واختراعها وإيجادها وإبداعها، خيرها وشرها، نفعها وضرها، لا يخرجها عن كونها مقدورة للعبد يخلق الله له قدرة يقوىٰ بها على الاكتساب.

فهو تعالى خالق المسببات والأسباب، خلق القادر والقدرة والمقدور معاً، وخَلقَ الاختيار والمختار جميعاً، خلقنا وخلق الفعل فينا، ﴿ **والله خلقكم وما تعملون** ﴾[1]. وخلق فينا اختيارنا، ﴿ **وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين** ﴾[2]. وأظهر فينا الاكتساب، ومكّننا منه بخلق الداعية اليه والقدرة عليه، فالداعية مخلوقة قبله والقدرة مقارنة له خلافاً للمعتزلة. وقد قدمنا في ذلك الأدلّة ونسب الفعل الينا لظهوره فينا واختيارنا له واكتسابنا. وقد تقدم بيان الاستطاعة وأن الباري تعالى خالق كل شيء، ومن ذلك المعصية والطاعة.

وقد نطق القرآن الكريم بما ذكرنا، من خلق الله أفعالنا بواسطة

---

(١) سورة الصافات الآية ٩٦.

(٢) سورة الإنسان الآية ٣٠.

اكتسابنا قال الله العظيم : ﴿ **قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم** ﴾[1]؛ **فهو** المعذب الموجد للعذاب، بما اجرى على أيدي السادات الصحاب، ونالوا به المجد والثواب بالهمم العوالي والاكتساب. وكذلك قوله عز وجل لنبيه الكريم المبجل ﷺ : ﴿ **قل هل تربصون بنا الا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا** ﴾[2] أي عذاب ينزله من السماء أو يظهره في الأرض بغير واسطة بسبب صاعقة او خسف او غير ذلك مما به العطب، أو بواسطة أيدينا رمياً وضرباً وطعناً بالقنا ويكون هو المعذب، كما قال جل وعلا : ﴿ **وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** ﴾[3].

وقد صرح بما ذكرنا من الخلق والكسب قول الباري قال : ﴿ **فإنَّا قد فتنَّا قومك من بعدك وأضلهم السامري** ﴾[4].

فيا ليت شعري، ما جواب المعتزلة عن هذا وأمثاله ؟ وماذا عسى أن يجيبوا ؟ فيا ليتهم فهموا قوله تعالى : ﴿ **ثم تاب عليهم ليتوبوا** ﴾[5] فيرجعوا عن اعتقادهم الباطل والى الحق ينيبوا ويتحققوا الحق في قول الحق حاكياً عن الكليم الذي فضله : ﴿ **فتنا ان هي الا فتنتك تضل بها مَنْ تشاء وتهدي مَنْ تشاء** ﴾[5].

وعلى الجملة فليس يؤثر في جميع الوجود إلا قدرة الموجِدِ لكل موجود، ولا يقع من جميع الأشياء في ملكه ما لا يشاء؛ فلو لم يرد من أحد عصياناً لما خلق لكل إنسان شيطاناً، بل ما كان يخلق لعقاب ناراً ولا يسمِّي نفسه غفاراً.

---

(١) سورة التوبة الآية ٩٤.

(٢) سورة التوبة الآية ٥٢.

(٣) سورة الأنفال الآية ١٧.

(٤) سورة طه الآية ٨٥.

(٥) سورة الأعرافِ الآية ١٥٥.

فهرس الموضوعات

مقدمة المحقق

كتاب مرهم العلل المعضلة